

فنون الأدب العربي

الفن الغنائي

٦

# الرجاء

بمقدم

الدكتور محمد سامي الدهان



دار المعارف





الرجاء



فنون الأدب العربي

الفن الغنائي

٦

# الرجاء

بقلم

الدكتور محمد سامي الدهان

الطبعة الثالثة



دار المعارف

الناشر دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج م ع

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### تمهيد

« غالب » لا تسع لنيل العلى      بلغت مجداً بهجائى فقفت  
وكان مجهولاً ولكنى      توّهتُ بالمجهول حتى عُرِف  
« أبو نواس »

لعلّ الشرُّ خلق مع الإنسان كما خلق الخير ، فنشأ الخصام والتنافس والحقد والضغينة والحسد والعدوان مع بدء الوجود ، على سعة الرزق ووفرة الخيرات واتساع الأرض . وظهر الشر على أشكال مختلفة وألوان متباينة وأسلحة شتى ، ومنها القول والبيان . فلما عمد الشعراءُ إلى المبارزة والمناقضة والمنافرة نظروا إلى خصومهم من وجوه عدة وتناولوهم من نواح كثيرة ، فأشفقوا حيناً وأغلظوا أحياناً ، وأسفّسوا حيناً وارتفعوا أحياناً ، حتى كان من أقوالهم ديوانٌ كبيرٌ فى الأدب العربى يحملُ بين دفتيه ضروبَ المهجاء .

هذه الضروبُ فيها الوعيد والإنذار ، وفيها الذم والاحتقار وفيها التندر والاستهزاء ، وفيها السخرية والتفريغ ، وفيها العتب والتأنيب ، تختلفُ حسب البيئة والعصر ، والتربية والعقل ، والثقافة والعلم ، فتتخذ طريقها إلى المهجوة عن طريق العرض أو الأخلاق أو معاييب الجسد أو المذهب أو الفرقة أو الدين . فتصب القول فيها على إبداع وابتكار أو تقليد وترسم ، عن صدق أو كذب . وهذه الألوان جديرةٌ بالدراسة والنقد لأنها من الأدب الغنائى الذى ينبعث غالباً عن عاطفة شخصية تُملئها ظروف الشاعر الخاصة أو عواطفُ الذين يدفعونه إليها ، فيصنعها لإرضاء لنفسه أو تلبيةً لقومه ، أو دفاعاً عن عشيرته ، أو يرتزق بها حرفة ومهنة فتندّر عليه المال وتكسبه الشهرة فيعيش من ورائها كما كان يعيش بالمديح سواء بسواء .

ولا شكّ فى أن السبيل إلى الشهرة أو المال مختلفةٌ عند الشعراء ، بعضهم

يصلُ عن طريق المدح فيُغْدِقُ الصِّفَاتِ الصَّادِقَةَ أو الكاذبة لينال، وبعضهم يصل عن طريق الذِّمِّ والهجاء فتصله الصَّلَاتُ والعطايا والهباتُ وينال رزقه كذلك . فالهجاءُ سوق رائجة منذ القديم وفن مطروقٌ منذ فجر الأدب العربي ، لا بد من البحث فيه ودراسته على أنواعه وأقسامه .

ونحن حين نستعرض هذه الألوانَ نعرفُ أننا نغمسُ ريشتنا في الشر ونقتابُ أعيننا في الأذى فتنتقل من الأقوال ما يحلو وما لا يحلو ، ولكننا نتعذَّبُ في كتاب أعد للناشئة لئلا نسوق إلى الشر . فنضرب عن ذكر ما تخجل العذراءُ والشاذى من ذكره وقراءته ؛ وفي الهجاء كثير منه ، أسف بعضهم حتى نزل إلى الحضيض وورد عند الوحل ، وسقط في الماء الكدر الملوَّث ، وعلق بما لا يعلق به شرف أو نبل أو رفعة — كما قلنا . لذلك نستعرضُ ما خفَّ حملاه وسهلت روايته ، وأذنت الآداب المتعارفة بقراءته وسماعه . وهذا ما جعل الطريق مخفوفة بالأشواك محوطة بالمصاعب ، ولكننا نريد الورد والنَّورَ لنجمعهما باقةً تمثل هذا الفن الغنائى الرفيع ، ففيه رسم، وتصوير، ووصف ، يسمو بأدبنا إلى مصاف الآداب العالمية ، لذلك تمثلنا بمن استشهدنا بروائعه غير مهالين بأن تدمى أكفنا على أن تسلم آذاننا ونفوسنا ، في بحث لا نراه مستوعباً كل الاستيعاب ، خوفاً من خطره على الآداب أو خشية من اللوم والعتاب ، أو عجزاً عن الشمول في شعر ندر أن اجتمع بين دفتي كتاب واحد ، فجمعنا شتاته من أطراف الأدب ، وحشدناه لهذا النقد والتحليل . وهدفنا وجه الله وخدمة الناشئة ، وفقنا الله للصواب .

الدكتور سامي الدهان

دمشق في ٥ يونية ١٩٥٧



## مقدمة

### ١ - الهجاء في الآداب العالمية

حمل الشاعر العبقري منذ القديم لواء قومه ، فدافع عن أحسابهم وأعراضهم ، وتناول خصومهم وأعداءهم سواء أكانت المعركة بين الأسرة والأسرة ، أم العشيرة والعشيرة ، أو الأمة والأمة . فكان قوله موضع الذكر والإكبار ، وكان قصيده نشيداً يُردده الأنصار معتزّين في خذلان الأعداء الفجّار ، وكان هذا القول من صور الهجاء ألواناً وضروباً ، وصور وفنوناً ، تتعلق بالآدب الرفيع وتخلد على الزمان .

ويحمل بالآداب العلماء أن يعمدوا إلى قصائد الهجاء في الأمم فيعملوا على جمعها وترتيبها وعرضها ، لعلهم ينتهون من ذلك إلى دراسة هؤلاء الشعراء على اختلاف العصور والأُمم منذ فجر الكتابة . ولكننا لا نجد كتاباً يستوعب هذا الجُمع ويعرض إلى هذا النوع ، لنحكم كيف بدأ الهجاء طفلاً ، وترعرع بعد ذلك حتى بلغ أشده .

فنحن نجهل كيف كان القدماء يهجون في وادي النيل وفيما بين النهرين وفي شواطئ فينيقية ، وفي المدن البعيدة ذات الحضارة العملاقة . ذلك لأن أكثر أدبهم قد ضاع في المسلات والنقوش وابتلعت الأرض من جديد كما ابتلعت مُبدعيه فغابت ألواحُ الخشب والحجر والقرميد ، وضاعت أكثر أوراق البردي والنقوش ، ففقدنا الصورة التي كان الكهان يلعنون بها الكفار ، وكان المحاربون يهجون بها الأعداء بعد الانتصار ، وخسرنا بذلك أكثر هذه النصوص الأدبية .

فقد عرفتُ بابلُ ، من غير شك ، في مسرحياتها الدينية شيئاً يشبه الهجاء ، وشهدتُ مصرُ في قصائدها ألواناً في اللعنة على سارق القبور والكنوز ، وترنّمت الصينُ والهندُ وغيرهما بقصائد الهجاء في ذم الشر وهادى السلم والمعتدين على الأصنام .

أما اليونان فقد كانت أعيادها شاهدة على سماع مسرحيات التمثيل القديمة ، وفيها ألواح من الهجاء : في ذم المرأة الفاجرة ، أو الآلهة الغادرة ، أو اللص الباغى ، أو التاجر البخيل . وقد وصلت إلينا بقية من هذا الهجاء تدل على ما ضاع ، تعرض علينا منه صورة نتمثله بشعر أرخيلوكوس<sup>(١)</sup> وقد كان إماماً لهذا الفن ، أعجب به هوراس وقلده كثير من شعراء اليونان واللاتين . ونجده كذلك عند الشاعر سيمونيدس في قصيدة يهجو بها بعض النساء ، فيصورها كأن الله أخرجها من خنزير يسرح بنوها في الدار على اضطراب وفوضى ، وتراهم طرحى على الأرض يتمرغون في القذر ، والأم تمرح بينهم كما تمرح الخنازير في حظائرها وتزداد شحماً على شحم . ويصور بعضهن كأن الله أخرجها من ثعلبة مأكرة فهي لا تغفل عن شيء شراً كان أو خيراً ، وصور أخرى كالكلبة في حركتها ونشاطها تطلق لسانها بالسوء ، ولا يُجدى فيها وعيد أو تهديد ، ثم صور امرأة كالبحر ذات طبعين مشرقة يوماً وعبوساً يوماً آخر . فالشاعر اليونانى رسم المرأة في جسدها المترهل المتضخم ، ورسمها في خلقها الثعلبي ، ثم جعلها كالكلبة في حركتها ، فقدم إلينا لوحات للجسد والخلق والحركة ، ولعله يضحكننا منهن في سخرية جميلة خفيفة جمعت قوالب الهجاء في القديم قبل الميلاد ، تشبه ما استعمله العرب من هجاء فيما بعد .

وفي المسرحيات اليونانية صور للهجاء كذلك تصف الشذوذ على ألوانه ، فتناول البخل أو السمن أو الثروة ، وتصيب الأخلاق أو حالات النفس كما تصيب أوضاع الجسد على حد سواء . ولسنا في صدد تفصيل الهجاء عند اليونان لنورد ما قالت الشاعرة سافو أو ما كتب أبيكارموس في الطفيلي ، وإنما يحسن الرجوع إلى المصادر ليوازن بينها وبين ما رسم العرب بعد قرون عند الجاحظ والتوحيدى وغيرهما من صور الهجاء الفنى ، لنجد القرب والشبه على شكل غريب .

وفي شعر الملحم عند اليونان والرومان كثير من هذه الأمثال في الهجاء ، وردت سخية كما وردت في شعر الهند والصين والفرس ، ولكنها صيغت أحياناً

(١) قصة الأدب في العالم ، لأحمد أمين وزكى نجيب محمود ، ١٦٧/١ .

على شكل قصص أو حكايات الحيوان أو حكم ساخرة . قريية في كثير من صورها مما جاء في التوراة والتلمود والإنجيل تمسّ الإنسان العادى أو الشعب التائه ، أو تتناول العتاة الجبابرة ، أو الكفار المردة أو الشياطين . نقص سيرة آدم وما وقع لولديه ونوح وابنه ، والسيد المسيح وموقف الكفار منه ؛ وتلعنُ الشيطانَ وتصوره في أقبح حالاته ، فيقوم الهجاء على وصف بارع ساخر لعله من أروع الآداب الدينية والإنسانية على مرّ العصور .

وفي العصور الوسطى ، كما في العصور الحديثة ، برع الهجاء عند مختلف الأمم في فرنسا وإنكلترا وإسبانية وألمانيا وإيطاليا ، في مسرحيات وقصص وقصائد يُعيننا تحليلها في كتاب صغير وجيز . ولو قد فعلنا لظهر أن الأدب الإنسانى متشابه في الأقطار ، وأن العقل والخيال والشعور متقاربة عند بنى الإنسان يتناولون المعنى على بُعد الدار وتقلّب الأزمان فيقع الحافر على الحافر . وتشابه الخواطر ، وليس العرب بمعزل عن هذه القوالب وهذه الصور . فهم كذلك أدباء إنسانيون اشتهروا بفنون الأدب الغنائى كما اشتهر غيرهم سواء بسواء .

## ٢ - الهجاء في الأدب العربى

عاش العرب في جزيرتهم الأولى على شكل ابتدائى فيما يبدو ، فقد عرض الباحثون لطبيعة العبث والنهب والسلب وركوب الأخطار . وصوّروا العربى في صفات لا تعلق إلا بالقساة والمتوحشين <sup>(١)</sup> ورأوا أنهم كانوا يتنافسون على الرياسة ، وأنه قلما يُسلم واحدٌ منهم الأمرَ لغيره ولو كان أباه أو أخاه أو كبير عشيرته ، فتعدّد الحكام والأمراء . ويضيف ابن خلدون أن العرب أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض للغلظة والأنفة وبعدهم الهمة والمنافسة . وانتهى غيرُه إلى أن العربى يثور على كل سلطة تُحاول أن تحدّد من حريته ولو كانت في مصلحته . فهو ديمقراطى مسرفٌ في الديمقراطية إلى حدّ بعيد ، وهو عصبى المزاج ، سريع الغضب يهيج للشىء التافه ، ثم لا يقف في هياجه عند

(١) نخلص المرحوم أحمد أمين آراءه النقاد في كتابه فجر الإسلام ، ١/٤٦ وما تليها .

غاية ، وهو أشدّ هياجاً إذا "جرحت" كرامته أو انتهكت حرمة قبيلته . فإذا  
احتاجَ أسرعَ إلى السيف واحتكم إليه ، وبادر شاعره إلى اللسان فسلطه في  
شعر فيه الحماسة وفيه الهجاء المذع يصور العدو هزيعاً والمهاجم ضعيفاً ،  
ويبعث في نسبه الضعف وفي خلقه الصغار وفي شكله الزرابة .

ومردّ هذا الخلق عند أكثر الباحثين إلى طبيعة الأرض من فقر وإجداب ،  
وضيق الأفق بالسكان ، فينتعش البؤس وتشتد الحاجة ، وتحمدُ الشجاعةُ  
والوفاء والكرم ، ويذمّ الجبن والخيانة والبخل ، وتنخل الأنساب ، ويدور  
الشاعر الهاجى حول هذه الموضوعات ليصيب مقتلاً من خصومه ، ويسرع إلى  
القوافي والصور فيصبّ غضبه على الولاة والحكام والأمراء والملوك ، ويتناول  
المذاهب والأديان والعقائد ، وينتصر لفريق على فريق ، كأنه في حزب  
سياسي ، أو في فرقة دينية ، أو في دعاوة سياسية واجتماعية ، كصحافة اليوم .

وكان من ذلك كله ديوان في الهجاء كبير ، برع فيه الشعراء في القول  
والبلاغة والفصاحة ، فعرضوا للأنساب والأحساب والأعراض والأخلاق  
فصوروها في خيال صادق أو كاذب ، لا يبالون بما يعترض سبيلهم من  
سمعة تتحطم أو كرامة تهشم أو أرومة تهدم ، أو تسب ينهار أو عرض يفضح .  
فقد كان الهدف النصر على الخصم ليس غير ، يتناولونه من نواحيه فيبرزونه  
في شكل "مخز" ، ويضعونه موضع السخرية والحطّة والضعة ، فإذا بلغوا من ذلك  
ما يريدون انتصر هجاؤهم وظهروا على عدوّهم واشتهروا بين الأقوام وارتفعوا إلى  
ذروة الأدب .

وقد استعرضنا الشعر العربي في هذا الباب فرأينا أنه على أنواع منه : الهجاء  
الشخصي يتناول المهجو في عرضه ونسبه ، وخلقته وخلقته ، والهجاء السياسي ،  
وهو ينال من القبيلة والسلطان والسياسة ، والهجاء الديني وهو يعرض للعقيدة  
والمذهب والدين ، والهجاء الاجتماعي وهو يصف الأخلاق العامة وطبقات  
الأمة ويرسم انحلالها . ولعلّ هذا التقسيم والتبويب قصير الحدود ضعيف  
الشمول ، لا يضمّ كلّ ما قيل في الهجاء . ولكنه قريب إلى أن يصور حال  
الأدب العربي على اختلاف العصور منذ الجاهلية إلى اليوم في قوالب معدودة

طرقها الشعراء مند القديم وعادوا إليها يعبون منها ويردون من وردها ، يخترعون  
ويبتدعون حيناً ويسقطون في مواضع الخواطر القديمة أحياناً ، فليس ثمة ابتكار  
ولا ابتداء ، كل ذلك وفاق عبقرية الشاعر وتربيته وثقافته وبيئته ، وتبعاً  
لإخلاصه في القول أو كذبه فيه .

والمهم أن الهجاء فن من فنون الأدب الرفيعة في الأدب العربي قد يُعين  
على تصوّر الحياة عند الأفراد وفي المجتمع وقد يساعد على تأريخ الحياة العربية  
حين يصدق الشاعر ، ويحذر المؤرخ في بحثه حين يريد أن يعلم ما كان العربي  
يستحسن ويستقبح ، وما كان يذم ويقدر ، وأن يتبين ما كان العرب والمسلمون  
يجدونه من مثالب ومآخذ عند الشعب وعند الحكام ، وهو على ذلك يحوي  
ألواحاً من الصور تضاف إلى الآداب الإنسانية في القديم والحديث ، فتُغني  
متحف الهجاء في الأدب العالمي ، وتكسبه روعة لا تقل عن روعة الآداب  
الأخرى ، إن لم تزد عليها وتبرزها وتسبقها إلى ميادين النبوغ والعبقرية والإلهام .

## الفصل الأول الهجاء الشخصي الواقعة في الأعراض والأنساب

« كما كثرت أضدادُ المديح في الشعر كان أهجى »  
قدامة

جرير - الفرزدق - بشار - أبو نواس - ابن الرومي -  
البحرئى - المتنبي - المعرى - ابن عنين .

حرص العربي منذ نشأته على السمعة الحسنة والصيت الطيب ، فترع إلى التعلق بالشرف والأرومة ، وتمسك بطيب النسب فافتخر به ، وأشاد بذكره ، وخاف أن يأتيه من قبل هذا عار يلحق به فلن ينجو أبد الزمان ، وعرف أن هذا العار لا يصيبه إلا من قبل المرأة . لذلك كان يحزن لولادة الأنثى فيما قالوا لأنها بابٌ يلججه الصّهر فينتقل بها عن سبيل الزواج أو السبي إلى قبيلة معادية ، أو إلى بؤس يُقلقه ، فسعى إلى التخلص منها بسبب ذلك وبسبب الفقر . والذكور يعينون آباءهم في كل شيء . ويصبحون سنداً في الحرب والقتال وهم في ذلك على خلاف البنات ، موضع الفخر والاعتداد .

وعرف الشعراء ذلك فألحوا أشد الإلحاح حين الحصومة والمنافرة والقتال على تناول المرأة بألسنتهم ، يضعون منها ليضعوا من قدر أهلها وأسرتها وعشيرتها ، فيصفونها بأسوأ الأوصاف ويبلغون بذلك حدّاً لا تسيغه الأذواق السليمة الحضرية اليوم ، يذكرون منها سوءاتها ، ويصورون انحطاط عفتها بالحق أو بالباطل سواء أكانت زوجاً أم أمّاً أم شقيقة .

ولم يكن ذلك في الجاهلية فحسب وإنما تبعه إلى عهد الإسلام وعهود الأمويين والعباسيين وعصور الانحطاط ، ولعلمهم حين يقلدون في فنّ الهجاء

يصيبون منها مقتلاً إلى اليوم في أحاديثهم وخصوماتهم السياسية والحزبية والدينية والاجتماعية . فهي ضحية هذه الألسنة المتصالة تَردُّ في الشعر والنثر فجاعة ، حين يكون الحديث في المهجور فسيحضرها الشاعرُ أبداً ويخصها بغضبه وعدائه ، وهي لا تدري من الأمر شيئاً ، ولا تعرف أنها موضعُ هذه العناية ، ولكنها مكرهةٌ على أن تخوض في الميدان ، وأن تكونَ فريسةً للهجاء .

وفي كتب الأدب كثير من الشعر في الهجاء يتناول المرأة على صور شتى ، بعضها مقلعٌ حتى ما نستبيح لأنفسنا روايته هنا لأنه يعلق بالجدية المنحطّة يذكّر منها ما لا يُذكر ويصف منها ما لا يُوصف ، في خيال جامع يتصل بالفن حيناً ويبتعد عنه أحياناً . وسنوج على بعض هذه الصور نستخلصها من الوحل الذي تغوص فيه ، ونعرضُ منها ما نستطيع أن نعرض بالحذف والتحويل ، لعلنا نصل إلى دراسة الطريقة التي كانوا يتناولون بها المهجور نفسه فيصورون النساء عنده أو يهجون المرأة وهم يقصدونها . وسيللنا إلى ذلك مختارات الأدب ودواوين الشعراء ، وكتب النقد القديمة ، نقرؤها ونبرز ما كان من الهجاء فيها .

في الحماسة أن عبد الله بن أوفى الخزاعي هجا امرأته فقال إنها نمامة بين الناس مثل كلب الهراش يهيج الشر ، تسعى بين جيرانها بالوقية والدس ، فتدعي رؤية ما لم تر ، وتُسرف على ذلك في الأكل والشراب فلا تعرف القناعة والصحة فيقول :

فإن تشرب الزق لا يروها وإن تأكل الشاة لا تشبع  
وليست بتاركة محرمات ولو حفت بالأسل الشرع<sup>(١)</sup>

وهي صورةٌ بارعةٌ لامرأة تشرب الزق كله فلا ترتوي ، وتأكل الشاة كلها فلا تشبع ، فأى جسد تحمل وأى معدة تملك ، ومن هي هذه الأنثى التي تسابق الرجال في الهجوم على المأكول والمشرب ، ثم إنها تبز النساء في الهجوم على المحارم كذلك ، فلا تغادر واحداً منها ، ولا يمنعه عن إتيانه

مانع ، تلك أنثى تشين الأخ والزوج والأب والابن ، فلا يتصل بنسبها رجل إلا لوّث سمعته وشانت هيئته فالشاعر أصاب منها حيث أراد أن يصيب ، فبلغ الغاية أو كاد .

وذهب كثير من الشعراء بعيداً في هذا الهجاء ، فتناولوا زوجات خصومهم وأعدائهم فجعلوا الأمهات عند المهجوين مطية للانتقام ووسيلة للتشفي ، فسقطوا على العورات وسموها بأسمائها من غير تحرج أو تأثم ، لعل ذلك يشيع بين الناس ويروج . ذكر هذه النساء وتدور صفاتهن على الألسنة فيسقط المهجو ويقع في شر هذه الأقوال . ولعل من أوقع الشعراء في هذا الباب شعراء بني أمية في العصر الأول ، فقد دار بينهم هجاء ومناقضة ومنافرة وحمى بينهم الوطيس حتى كان للنقائض في هذا العصر جولة وصولاً ، فملأت الكتب وشغلت الباحثين<sup>(١)</sup> منذ القديم ، واستهوت الشراح .

أما جرير فقد كان شرهم على الإطلاق ، نال من خصومه فلم يتورع ، وبسط لسانه فلم يقفه رادع أو وازع . فقد كان بدويّاً جافاً غليظ الطبع ، يتناول السوء باسمها فيقول في هجاء التيم :

وَتَيْمِيَّةٌ خَزَىٰ مَحَلَّ إِزَارِهَا .....

وما محلّ هذا الإزار إن لم يكن الشين كله ؟ لقد عرّى المهجوات في شعره . وخاصة حين هجا هذه التيمميّة فرأى جسدها ووصف موضع العفة منها ، ثم قال فيها :

وَكَاَنَّ عُرْيَتَهَا إِذَا وَاجَهَتْهَا جُعْلَانُ مُكْتَنِفَانِ فَرُخْ غُرَابٍ

ثم خاض فيما بينها وبين بعلها فوصف ما تعافه النفس وتأباه الكرامة وتردّه العاطفة النبيلة ، ويستفظعه الشعور السليم ، ولن تروى ما أسف فيه ، ولكننا سنورد ما قاله في نساء بني عقال :

وَجَدْنَا نِسْوَةً لِّبْنِي عِقَالٍ      بَدَارِ الْخِزْيِ أَغْرَاضَ الرُّمَاءِ  
غَوَّانُ هُنَّ أَحْبَبْتُ مِنْ حَمِيرٍ      وَأَمْجَنُ مِنْ نِسَاءِ مُشْرِكَاتٍ

(١) صدر منذ زمن بعيد كتاب نفيس في النقائض للأستاذ أحمد الشايب يحسن الرجوع إليه .



وَسَوْدَاءُ الْمُجَرَّدِ مِنْ «عَقَالٍ» تُبَايِعُ مَنْ دَنَاخُذَهَا وَهَاتِ

وَهَكَذَا وَضَعَ جَرِيرٌ نِسْوََةَ بَنِي عَقَالٍ فِي دَارِ الْخَزْيِ وَجَعَلَهُنَّ أَغْرَاضَ الرَّمَاةِ ، فَهِنَّ أَنْخَبْتُ مِنَ الْحَمِيرِ وَأَجْنُ مِنَ الْمَشْرَكَاتِ ، ثُمَّ جَعَلَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ تَبَايِعَ كُلِّ مَنْ دَنَا مِنَ الرِّجَالِ فِي سَوْقِ الْعَاطِفَةِ الْمَاجُورَةِ . فَاشْتَدَّ عَلَيْهِنَّ وَرَمَاهُنَّ بِالْخُبْتِ وَالْجَنِّ وَالْفَحْشِ ، فَأَوَقَعَهُنَّ فِي أَلْسِنَةِ النَّاسِ ، يَشَارُ إِلَيْهِنَّ بِالْبَنَانِ ، وَيَقْصِدُنَّ لِأَغْرَاضِ السُّوءِ .

وَمَعِينُ جَرِيرٍ لَا يَنْضَبُّ فِي هَذَا الْبَابِ ، فَهُوَ يُرْسَلُ الصُّورَ الْقَبِيحَةَ مِتْنَالِيَةً فِي دِيَوَانِهِ ، يَرْمِي بِهَا خُصُومَهُ فَلَا يَرْحَمُ النِّسَاءَ وَلَا يُشْفِقُ عَلَى شَرَفِهِنَّ ، وَلَا يُبَالِي حِينَ يُدْمَى الْعَرَضَ وَيُخْذِشُ الْكِرَامَةَ وَالْعِفَّةَ ، فَهُوَ يَرِيدُ أَنْ يَعْزِضَ الْمَهْجُورَ فِي صُورَةِ تَضْحُكِ النَّاسِ مِنْهُ ، وَتُزْزِي بِمَقَامِهِ مِنَ الْحَسَبِ وَالنَّسَبِ وَالشَّرَفِ . وَكَثِيرًا مَا يَشَبَّهُ الْمَرْأَةَ بِالْخَنَازِيرِ أَوْ بِالْحَمِيرِ ، أَوْ يَصِفُهَا ضَخْمَةَ الْبَطْنِ كَرِيهَةِ الرَّائِحَةِ بِشَعَةِ الصَّوْتِ لَهَا خَوَارِ كَخَوَارِ الثَّوْرِ . وَيَزِيدُ عَلَى ذَلِكَ فَيُرْسِمُهَا وَقَدْ خَرَجَتْ لِلرِّيبِ فِي اللَّيَالِي السُّودِ ، فَهُوَ يَعْتَمِدُ عَلَى الْإِقْدَاعِ فَيَنْزِعُ عَنِ الْمَرْأَةِ حُلَاهَا مِنْ جَمَالٍ وَنَسَبٍ وَشَرَفٍ ، فَيَقُولُ فِي نِسَاءِ بَنِي تَغْلَبَ قَبِيلَةَ الْأَخْطَلِ :

نِسْوَانُ «تَغْلَبَ» لَا حِلْمَ وَلَا حَسَبَ وَلَا جَمَالَ وَلَا دِينَ وَلَا خَفَرَ

وهنا يَجَرِّدُهُنَّ مِنَ الْعَقْلِ وَالْدِينِ وَالْجَمَالِ وَالْحَيَاءِ ، فَلَا يُبْقِي عَلَى شَيْءٍ مِنْ خُصَالِ الْمَرْأَةِ الشَّرِيفَةِ الْعَفِيفَةِ الْخَصَّانِ . وَيَهْجُو التَّغْلَبِيِّينَ فَيُرْمِي نِسَاءَهُمْ بِسَهَامِ الشُّكِّ وَالرِّيبِ ، فَيَقُولُ حِينَ يَتَنَاوَلُ الْبَعِيثَ :

الْمُعْرِسِينَ إِذَا انْتَشَوْا بِنَاتِهِمْ وَالِدَاتَيْنِ لِجَارَةٍ وَسُؤَالَا

فَهَلْ تَرَى أَقْدَعَ مِنْ هَذِهِ الصُّورَةِ ، حِينَ تُتْعَمُ النَّظَرُ وَالْدَقَّةُ فَتَرَى الْآبَاءَ يُصِيبُونَ بَنَاتَهُمْ بَعْدَ أَنْ تَعْمَلَ الْحَمْرَةُ فِي الرُّؤُوسِ فَلَا يَدْرُونَ مَا يَأْتُونَ وَمَا يَجْنُونَ . وَجَرِيرٌ يُفِيضُ فِي هَذَا الْبَابِ فَيَتَنَاوَلُ «تَغْلَبَ» قَائِلًا :

نُبِّئْتُ «تَغْلَبَ» يَنْكُحُونَ رِحَالَهُمْ وَتَرَى نِسَاءَهُمُ الْحَرَامَ حَلَالًا

وبذلك يرى للرجال هذا الشين المغيب ، وللنساء هذا الفعل المريب ، فلا

يسلم منه أبناءُ القبيلة كلها ، وكأنه يرسمُ خليةً للعُبثِ والخبونِ مما لا يقع في خيال ولا يتصوره ذهنُ سليم .

والفرزدق لم يكن أقل سلاطة من جرير حين يصف النساء في هجائه ، فيصور قوم جرير وقد استسامت النسوةُ لكل شيعب ، وسكنت لكل مُغير ، فضاع الشرف وتاه الحسب ، واستيقظت الشكوك والريب . وذلك إذ يقول :

وَتُشْمِسِي نِسْوَةَ لَبْنِي « كَلَيْب »      بِأَفْوَاهِ الْأَرْقَةِ مُشْعِيعَاتِ  
يَبْعَنَ نَفْسُهُنَّ بِكُلِّ فَيْلَسٍ      كَبِيعِ السُّوقِ نَحْنُ مَنَى وَهَاتِ

وكانه ينظر في معانيه إلى قول جرير . بل كأن هذه الصورة سارت وحدّها على لسان الشعراء المهجائين . لا يجدون غيرها في التعبير والإذلال والإفحاش ، فالنساء في أسواق الخنا يبعن نفوسهن بكل رخيص . وسوق الفرزدق كسوق زميله رائجة فما يبدو لهذه الآلسنة المتطاولة . يخوض فيها بحراً من الشتائم ليرسم النسوة وقد أوغلن في الفحش . وسبحن في حياض الإثم . فهن غير محصنات . ولسن بريئات من الريب . قذرات لا يغتسلن ولا يبقين على طهر . ومهورهن جداء يُشترين بأبخس الأثمان . وقد يجعل الفرزدق ثمن النساء عظماء من غير لحم . يعرضن من جسدهن على إخوتهن ما لا يعرض ، ويسرحن مع البقر في همل فلا يعرفن الحلى . ولم تثقب آذانهن ، وهن معورات يأكان عند من يعرن قدورهن فيدسمن من طعام الجار وأكل الصدقات . ولعل الشاعر يعكس في هذه الصور ما كان يكره العرب لنسائهن من عوز وحاجة إلى جانب الخنا والفحش ، بل لعله يريد أن يصور سعيهن في سبيل الفجور عن حاجة وفقر . وهذا أبشع ما يجد العربي من هجاء . ويلجّ الفرزدق على « بنى كليب » . فيصف نساءهن بما يرسل لسانه السليط فيقول :

نساء بالمضايق ما يُواري      مخازين منتقب الحمار  
وما أبكارهن بشيبات<sup>(١)</sup>      ولدن من البُعول ولا عذارِ

(١) الثيب : نفيس البكر ، والمرأة فارقت زوجها بموت أو طلاق .

فهنّ من الفجور بحيث لا يواريهنّ خمار ، ليس فيهنّ عذراء ولا شريفة فاضلة عفة ، وليس بعد هذا مطلب لشاتم أو مقذع . ودواوين الشعراء الثلاثة : جرير والفرزدق والأخطل تغصّ بهذا اللون من الإقذاع ، فليس للقارئ إلا أن يقلب صفحات النقائض فهو واجد فيها بغيته من صور لا نستطيع لأنفسنا روايتها هنا . وليست هذه الدواوين الأموية وحدها معين القراء وإنما يجدون في كتاب الحماسة شيئاً كثيراً من هذا الضرب ، فقد قال شاعر في هجاء أيّهم من النساء :

تَجُودُ بِرِجْلَيْهَا وَتَمْنَعُ دَرَّهَا      وَإِنْ كَلَبَتْ مِنْهَا الْمُدَّةَ هَرَّتْ<sup>(١)</sup>

فهو يصمها بقلة الخير ، ويشبهها بالشاة التي تفلج رجلها فإذا أريد حلبها تمنعت ، فهي تساعد على كل رغبة للرجل ، غير أنها لا مودة لها ، ولا يبتغي عندها أسباب الحب والرحمة ، وإنما هي كالكلب تنبح وتهرّ .

فلما كان العصر العباسي وسرت لؤثة الأعاجم وفسد الذوق العربي ظهر الفحش في الهجاء على أسلوب آخر ، وكان من المبتدعين فيه بشار بن برد ، فقد كان يقول : « إني وجدت الهجاء المؤلم آخذ بضبع الشاعر من المديح الرائع » . فبالغ فيه وأسهب ، وذكر الأم والأخت والأسرة ، وجعلهنّ في إلحنا وجعل الرجال شهوداً عليهنّ فقال :

لَيْسَاءِ الزَّانِجِيَّ فِيمَنْ يُصَلِّي      صَدَقَاتِ يَفْضَحْنَ بَنَاتٍ وَأَخْتًا

وهو ينزل على مهجوة نزول الصاعقة كما نزل الجاهليون والأمويون ، فيصف الأم في حال لا تُرضى ولا تسر ، ويسرف في الوصف حتى يذكر ما يقع لهذه المسكينة ، فيتصور أهلها نياماً ، ويتخيلها مع الريب تسير في كلّ درب . ونحن حين نقترض في الوصف نخاف من الإثم في إيراد كلّ ما وقع لديوانه من هذا الفحش المزرى ، فأقلّ عباراته تشتمّ منها رائحة تُفسد الأنف والأسرة والعرض فيقول :

كَسُوبٌ بِأَخْتَيْهِ وَقَيْنَةٍ تَاجِرٍ      وَمَا كَانَ فِي كِتَابِهِ بِكَسُوبٍ

وللقارئ أن يتصور وقع هذا الكلام في نفس المهجو ، حين يرى الشاعر قد وصمه بأخيه فجعله يكسب بعرضهما ويثرى من ورائهما ، حتى ليتخيل السامع أن ذلك جزءاً من حياة بغداد في التجارة والكسب ، وتملك القينات ، آنذاك ، فيتناول تاجرّاً من التجار بهذا ، فيجعله خاسراً أبداً الدهر . وزميله أبو نواس مثله في هذا الباب لا يكاد يقصر عنه في تناول الأم والأخت فيقول :

نَيْلَتْ بِأَدْنَى الْمَهْوَرِ أَخْتَهُمْ      قَسْرًا وَلَمْ يَدَمْ أَنْفُ خَاطِبِهَا

ويصور هذه الأخت رخيصة قد بيعت بمهر بخس دراهم معدودات وهى على ذلك في ماضٍ مريب لا يشرف خاطبها ولا يثلج صدره . وأبو نواس يجعل للمرأة قصداً وأخلاء ، في كثرة عجيبة حتى ما يخلص القاصد إلى قلبها من الزحام فيقول :

أَتَيْتُ فُؤَادَهَا أَشْكُو إِلَيْهِ      فَلَمْ أَخْلُصْ إِلَيْهِ مِنَ الرَّحَامِ  
فِيَّ مَنْ لَيْسَ يَكْفِيهَا خَلِيلٌ      وَلَا أَلْفَا تَخْلِيلَ كُلِّ عَامِ  
أَظُنُّكَ مِنْ بَقِيَّةِ قَوْمِ مُوسَى      فَهُمْ لَا يَصْبِرُونَ عَلَى طَعَامِ

وفي هذه الأبيات صورٌ حضريّة عباسية فيها ابتكار وإبداع بعيدة عن جفاف المثلث الأموي ، قد تقع في القرن الرابع الهجري ، بل إن المتنبي أخذ عجز البيت الأول فاستعمله بلفظه ومعناه وأعجبه برصفه ومبناه . والشاعر النواصي بلغ بها ما كان يريد من هجاء فأنهى بهذه المرأة إلى الخضيض من الشرف والدرك من السمعة ، وجعلها خليلية ألف بل ألفين من الرجال كل عام ، فأية امرأة هذه ؟ وكم عرفت من الرجال حياتها ، ومن هى هذه المرأة التى لا تصبر على طعام واحد كقوم موسى الذين وصفهم القرآن الكريم ، واستعار الشاعر رسمهم لهذه المخلوقة في باب العرض والشرف . والحديد في هذا اللون أنه قصد إلى فيجور المرأة وعيها كما قصد القدماء ، ولكنه سلك إلى ذلك سبيلاً من الصور المستحدثة ليس فيها ذكر الأعضاء وجفاف العبارة وقسوة اللفظ ، وإنما رعى إلى مجمل المعنى فأصاب الهدف ووقع في النجاح .

ولعله يوغل في التوفيق حين يقول :

إذا تَفَكَّرْتُ في عَرْضِكَ أَشْفَقْتُ عَلَى شِعْرِي

وهذا لفظ طاهر لمعنى فاجِر ، تسلق به الشاعر سلم العبقرية وهبط بمهجّوه إلى جحيم الخبث والمجون فلم يجد لشعره مجالاً في رسم هذا العرض لأنه يحوز الحدود والسدود ، وهذا منتهى الجودة والابتكار .

وسار ابن الرومي في هذا السبيل نفسه فبلغ من الفن مبلغاً عظيماً جاوز فيه مراتب زملائه ، في دقة التصوير ولطف التعبير ، وبراعة التسديد إلى الهدف ، والنيل من خصومه فقد قال في قوم يهجوهم :

صِلُونِي بِأَعْرَاضٍ لَكُمْ قَدْ تَمَزَّقَتْ تَمَزَّقَ أَطْمَارِي عَلَى ابْنِ سَبِيلٍ

فانظر إلى هذه الصورة البارة ، وتخيّل هذه الأطمار البالية الممزّقة لتجد لها شبيهاً في أعراض القوم ، وقد تناثرت على كل جانب ، وتمزّقت من كل طرف ، وكان مقدعاً في شعره :

كَتَمْتُهُ أُمُّهُ آبَاءَهُ      فلهذا أنكر القومُ النَّسَبَ  
لَيْتَهَا أَنْبَتُهُ عَنْ آبَائِهِ      فلقد صُوِّرَ في تَخْلُقِ عَجَبٍ  
لَمْ تَزَلْ عُرْسُ «حُرَيْثٍ» مَرْكَبًا      لجميع الناس تخنى للركب

فأنت لا تجد لفظاً نائياً ، ولا عبارة جافة ، ولا ذكراً لما تستحي من إيراده ، وإنما تتصور فداحة الهجاء حين تعرف ما وقع لعرس الرجل وكثرة ما ورد على أمه فاختلط النسب وضاع موقع الأب ، لأن المرأة سارت في كل ركب ومشت لكل خاطب ، وانحنت لكل طالب ، فأين منها الشرف وكيف يكون منها النسل الطيب ؟

وهو حين يهجو خالداً القحطبي في قصيدة طويلة يقول في أمه ما لم يقل شاعراً ، ويوغل في الألفاظ البذيئة ، وتفتطف في حذر شديد بعض أبياتها :

إذا مَا وَنَى عَنْهَا الزُّنَاةُ دَعَتْهُمْ      شَقَاشِقُ مِنْ أَرْحَامِهَا الْخَضِرُ تَهْدُرُ

أحاشى التى تُنمى إليها وأنتحي بها أمك الأخرى التى سوف تظهرُ  
عساك أفاد تلك الدّعة نخوة فغرتك منى والجهول مُغمّرُ

فهى تدعو إليها الرجال حين يلبون عنها وجه الطالب ، فكأن فى جسدها ما لا يصبر على طعام واحد . وهذا من الدّعة بحيث يمس نخوة المهجو ويفعل فى كرامته فعل النار فى الهشيم والمعول فى البناء .

وابن الرومى يسير إلى أبعد من هذا فى هجاء الأعراض فيقول فى ابن الحبازة وأمه « بوران » ، ما لا تنفع معه الدّروع ، ولا يجدى فيه الحرص ، لأنه يمزق كل حجاب ويُصيب من الشرف مرضاً عضالاً :

شمل الناس عدلُ أمك حتى سارَ فيهم كسيرَ جورٍ « سدوم »  
كثرت موباتُ بوران حتى ضاقَ عنها عفوُ الغفور الرحيم  
لو أطاعت كما عصت لاستحقت خيلة الله دون إبراهيم

وما هذا العدل الذى ورّعته بوران على الناس حتى شمل كلاً منهم بنصيب ، وأصاب كلاً منهم بحصة ، وهل ثمة عدل فى الدنيا يصل إلى الناس جميعاً ، وهل ثمة امرأة تكفى الناس جميعاً . إنها « بوران » التى كثرت موباتها حتى ضاق عنها عفو الله العظيم ، وعمت معاصيها حتى بلغت فى عددها حسنات نبي الله إبراهيم الخليل . وليس هذا فحسب وإنما سار الشاعر فى سبيله يصف هذه المرأة ويصورها للناس فى أمثال وتشبيهات يعيننا سردها هنا ، وإنما نستعجز لأنفسنا رواية بيتين آخرين يقول فيهما :

ناقضت « مريم » العفاف فلما قاومتها بالغى والثائم  
حمدت فى الزنى تناسل « حوا » فحسراً عندّها كالعقيم

وبذلك يبلغ قمة الإقذاع إن كان للإقذاع قمة ، ويصل إلى ذرى الهجاء فى النيل من مهجويّه ، فيرسم الأعراض رسماً جامعاً لا نجدُ له مثيلاً فى الأدب العربى كله ، مما يحمل ابن الرومى إلى مصاف السبابين الهجائين فى الأدب العالمى . واو استبحنا لقلمنا أن يحول فى هذه الصور التى خلفها الشاعر فى بوران ، لنقلنا صورتها تفعل فى المحارث ، وتطيع الشيطان

الرجيم ، وتطوف الليل كله ، حتى أراها كل شخص في الظلام كالجرثوم ،  
فهى في كل منعطف ، وهى في كل سبيل ، تنتظر دعاة الفجور وشاربي  
الخمور ، بل إنها لتدعوهم إليها في أخريات الليل البهيم كما تفعل الساقطات  
اليوم بعد عشرة قرون في عواصم الغرب أو العالم الجديد ، حين تخلو الطرق  
من السابلة أو يزول حجاب الحياء تحت الأنوار الهزيلة ، ولا يكتفى ابن  
الرومى بالمرأة نفسها ، وإنما يرى بناتها بالفجور والفسق فيقول فيهن :

رَافِعَاتِ الْأَقْدَامِ بِاللَّيْلِ يَدْعُوْنَ عَلَى الْمُحْصَنَاتِ بِالتَّائِبِ  
فتصور هاته الفتيات وقد لحقن بأمهن في سيرتهن ، فوقعن في لسان  
الشاعر ، وجعلن رافعات الأقدام كل الليل ، ينتظرن ولا من محب فيتناولن  
المحصنات من النساء بالدعاء . لعل الله يجعل للرجال سبيلا إليهن . ولقد  
صوّر الشاعر منظرَ المرأة رافعة الأقدام في كثير من شعره ، فجعلها ترفع  
رجليها تحت الدجى كأنما تستغفر الله بأقدامها بدلا من الصّلاح والدعاء  
الطاهر . وهذا الشاعر على إقداعه في الصورة مبتكر في التعبير ، يرتفع عن  
مستوى زملائه في الهجاء الفنى البارع .

والبحترى أراد أن يسير في هذا السبيل وأن يبلغ إلى الأعراض والنيل منها .  
ولكنه أفحش وأسف ، ووقع في تعابير البدو وكان جافاً غليظاً تنقزز النفس  
من سماع ألوانه وأصواته . فلم يكن له من الابتكار ما كان لغيره . ولم يسلم  
لسانه فلم نستطع رواية شيء منه على شدة نظافته في المديح وغيره .  
وأما المتنبي فقد طرق الهجاء على أسلوب جرير والفرزدق سواء بسواء ،  
فذكر كل شيء واستباح كل تعبير . وقلد البدو في جفاف الصورة  
والتعبير ، وهجاؤه في « ضبّة » مشهور مذكور في ديوانه ، نقتطع منه  
ما يمكن للقارئ أن يتصفحه عابراً حين يقول فيه :

وَأَرْخَصُ النَّاسَ أَمَّا تَبِيعَ أَلْفًا بِجَبَّةٍ  
كُلُّ الْفَعُولِ سِهَامٌ لِمُرِيمٍ وَهِيَ جُجْبَسَةٌ (١)

وَلَيْسَ بَيْنَ هَلُوكٍ وَحُرَّةٍ غَيْرُ خُطْبَةٍ (١)

فهى رخيصة تُباع كما يبعث الجاهليات — ممن رأينا قبل قليل — فى سوق الخنا ، وهى كجعبة تتلقى السهام ، وهذا جديد فى الهجاء لعصره أخذته من وصف المعارك ورسم النصال تتكسر على النصال . وقد عمد إلى طريقة القدماء فى وصف النساء وأضافَ إليها طريقته فى التعبير ، فقال فى هجاء ابن كيغلف :

يَحْمَى ابْنُ كَيْغَلَفٍ الطَّرِيقَ وَعَرْسُهُ مَا بَيْنَ رَجُلَيْهَا الطَّرِيقُ الْأَعْظَمُ  
وهو فى ذلك شبيه بقول الفرزدق فى أم جرير حين قعدت للناس كطريق  
مُعَمَّمَلٍ ، أو كالربعى حين قال :

أَنَا زَوْجَةُ الْأَعْمَى الْمُبَاحِ حَرِيمُهُ أَنَا عِيرُسُ ذِي الْقَرْنَيْنِ لَا الْإِسْكَندَرِ

وَدَخَلَ أَبُو الْعَلَاءِ الْمَعْرَى فِي هَذَا الْبَابِ كَرَهًا لِلْمَرْأَةِ وَتَحَامُلًا عَلَيْهَا ،  
فتخيل لها كل فجور ، وألصق بها كل فسق ، ونزع عنها الثقة حتى حين  
تنتقل من بيت إلى بيت فقال :

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ زَوْجَاءِ قَائِلَةٍ (٢) لِلزَّوْجِ إِنِّي إِلَى الْحَمَامِ أَحْتَاجُ  
وَهَمُّهَا فِي أُمُورٍ لَوْ يُطَاوَعُ عَنْهَا كَسْرَى عَلَيْهَا لَشَيْنَ الْمَلِكِ وَالتَّجَارُ

ذلك لأنه يريد أن نكتفى منها بأن نجعلها قعيدة الدار ترتل آى الحمد  
والإخلاص فحسب ، فإذا خرجت جلبت العار إلى البيت ، وزوجة كسرى  
نفسه لو فعلت لكانت سقوطاً له دونه هجوم الجيوش واستعمار الحروب وذلة  
الانكسار ، ورأيه فى ذلك يعم جنس النساء لا امرأة بعينها ، لأنه يكره هذا  
النسل كله ، والمرأة سبب لوجوده وتناسله ، فهى أم الخباثت والمصائب :

يَا بَدَنَ أَعَادِيًّا وَيَكْنَ عَارًا إِذَا أَمْسَيْنَ فِي الْمَتَهْضَمَاتِ

فهن غير مأمونات فى غدوهن ورواحهن ، حتى فى بيوت التلاوة وفى

( ١ ) اهلوك : الحسنة السبل لزوجها .

( ٢ ) الهاء : الحمقاء .



كنف الشيوخ المكفوفين من أمثاله ، ذلك لأن صوتها يبعث الدعارة والشهوة وشنيع الأفعال .

ودخل هجاء الأعراض على يد ابن الحجاج العراقي وابن سكرة الهاشمي وابن بسام البغدادي باباً لم يدخله من قبل ؛ فقد أوغل هؤلاء في الألفاظ والتعابير ، وأسفوا في المعاني المنحطة السافلة حتى لتمجّ النفس من سماع صورهم وتشبهاتهم وأغراضهم في النساء ، فقد يُقبل أحدهم على أمه فينال منها ما ينال الغريب من الخلية ، وينتهي إلى وصف ذلك وصفاً فاحشاً ، لا تستقر العين على سطورهِ لكثرة ما يثير في الشعور من ألم الانحطاط ووحشية العمل . وفي كتب الأدب - وأسفاه - كثيرٌ من شعرهم ، أوردت « اليثيمة » كومةً مخيفةً منه ، ما نجيزُ رواية بيت واحد منها . وفي دواوينهم المخطوطة شعر يشيب له الطفل وتكذبه الأذن ، وتأباه اللغة العربية ، وينكره حتى أبعد المنحطين في الأخلاق فلا يرضونه لعشيقاتهم أو خليلاتهم المتاجرات بالحب . ولعلّ هذا الشرساق الشعراء بعدهم إلى الرضى عن مثل هذه الألوان فاستخفوا ظلّها في قصائدهم ، وطرقوها في هجائهم ، فكان لابن عنين في هذا الفن تعرّض للنساء ورسم لما يقع منهنّ في ألفاظ واقعية ، ومفردات واضحة ، لا يتكلف إليها الإشارة وإنما يستسهل لإيراد العبارة ، كأنه كتب الديوان لنفسه لا للناس ، فهو يقول في ابن عساكر يهجوهُ :

يا ابن الدجاجة كلّ الناس كان لها ديكاً فأنت ابنٌ منّ منّ حتى أناديكاً؟

ونحب أن نقف عند هذه الدجاجة في التعبير عن المرأة السافلة الداعرة ، لأنه تعبير تلقفته اللغات الأجنبية فرمت به أمثال هذه من النساء حين يتصدّين للرجال في زوايا الشوارع المظلمة يبغين على حهن أجراً ، ويستبدلن كلّ ساعة ديكاً جديداً . فابن عنين رمى هدفه كما يرى الغربيون ليطعن في نسب عدوه وإيرى أمه بالفجور والتقلب في أحضان الرجال .

ويقول الشاعر كذلك في هجاء ابن القلانسي :

ولكنني إن رمتُ إتيانَ عرسه « تمتعتُ منْ هو بها غيرُ مُعجّلٍ »  
وكمْ ليلةٌ قدْ بستُ جذلانَ بيتهُ « وبينَ هضمِ الكشعرِ يّاً المخلخلِ »

فهو يأتي الزوجة ولا يجد تعبيراً لحاله إلا أبيات امرئ القيس قديماً ،  
 فيصف منها ما وصف الشاعر الجاهلي ويصممها بما سار على الزمان من  
 فضيحة ذلك الضال الهائم الذي ضيعه أبوه صغيراً ، وافتتح شعرنا بغزل فيه  
 عبث ومجون .

وابنُ عنين يتناول الأختَ والأم حين يهجو رجلاً من دمشق فيقول :  
 ذُو طَرَفَيْنِ إِذَا نَسَبْتَهُمَا يَحَارُ فِي ذَاكَ كُلُّ ذِي لُبٍّ  
 فَالْأَخْتُ وَالْأُمُّ مِنْ بَنِي شَبَقٍ وَالْأَبُ وَالْإِبْنُ مِنْ بَنِي كَلْبٍ

وبذلك تناول الأسرة كلها ، وجعل نسب النساء إلى شبق ، وفي اللفظة  
 لدع كثير ، ومجاهرة بالوصف وتحد للأخلاق . وليس هذا غريباً عنه ففي  
 ديوانه منه سطور يندى لها الجبين ، وما نستطيع أن نُبتعد أكثر من هذا وإنما  
 نحيل إلى غير هذا الكتاب . لأننا نريده نظيفاً في بحث يجرّ إلى غير النظافة  
 عند تصوير هذا اللون . والذهاب مع الشعراء في أقوالهم إلى حيث يسفون ، فلا  
 ينفع مع شعرهم حذفٌ أو إضمار . ذلك لأنهم قد يعرضون في هجائهم لشذوذ  
 الرجال مع الرجال أو النساء مع النساء . بُغية الخطّ من قيمة المهجوة ، وتناول  
 عرضه . ويستطيع الذين يستطيعون الدراسة في هذا السبيل أن يلوذوا بدواوين  
 بشار وأبي نواس وابن عنين ، أو من جاء بعدهم حين سقطت الأخلاق خلال  
 عصور الانحطاط .

ونحنُ حين عرضنا إلى هذه الناحية أردنا أن نصوّر ظلمَ الشعراء للمرأة ،  
 وهم في سبيل هجاء الرجل ، أو ظلمهم للنساء وهم يهجمون عليهن لغاية يريدنها  
 الشعر والخيال . ويأبأها الواقع والشرف . ولعلّ ذلك من الأسباب التي بغضت  
 الشعر إلى كثير من الأئمة وصرفتهم عن قرضه ، ونزلت به إلى ساح الكذب  
 والوقعة . وخلفت لنا فيه صفحات لا تشرف السامع والقارئ ، ولكننا نظرنا  
 إليها هنا من ناحية فنّ الهجاء الشخصي وتناول العرض بالرسم والوصف ليس  
 غير ، ونهأ من تبعة ما يقع من وراء ذلك .

## الفصل الثانى

### الهجاء الشخصى

#### ٢ - عيوب الخلقة والسحنة<sup>(١)</sup>

« فأما الهجو فأبلغه ما خرج مخرج التهزل  
والتهافت . . فأما القذف والإفحاش  
فسباب محض »

الجرجاني

الفم - الأسنان - المنخران - العينان - الذقن -  
الشعر - الشارب - الجيد - العور - الصلعة - اللحية -  
القصر - الصوت المنكر - اللون الأسود - الأحدب .

رأينا أن هدف الهجاء هو الخط من قدر المهجو في غالب الأحيان ،  
وذلك بأن يجعله الشاعر ضحكة للسامع وتفكهة للناس فيصوره بصورة مزرية .  
وقد شهدنا من خلال الصفحات الماضية كيف سعى الشعراء إلى إحصاء  
الردائل ، فوجدوا أن أقواها إصابة للمهجو في المحيط العربى هو تناوله من  
حيث العرض ، وأن أشدها قتلا لسمعته هو تناول زوجه أو بنته أو أمه أو  
أخته ، فبلغوا من ذلك مبلغاً لم يقع في الآداب كلها كما وقع في الأدب العربى ،  
حتى لقد يظنّ ظانّ أن قومنا اختصوا بمثل ذلك . ولكن شعراء الهجاء عندنا  
لم يقفوا عند هذا الميدان الضيق ، بل تعدّوه لحسن حفظنا إلى ميدان آخر وهو  
رسم المهجو نفسه في صورة ساخرة ، صادقة أو كاذبة ، تقرّبه من الدمامة ،  
وتلفت النظر إليه ، وتثير الضحكات لتخيله ، فألحوا على عيب فيه ضخموه ،  
وانصرفوا إلى نقص فيه وسّعوا أمره ، كما يصنع الرسامون الهزليون اليوم -  
الكاريكاتوريون - فقد صرفوا ريشتهم البارة إلى القصر ، أو دمامة الوجه ،

( ١ ) السحنة والسحنة : الهيئة واللون .

أو عرض الأكتاف ، أو طول الأنف ، أو كبر المنخرين ، أو كراهة الرائحة ، أو نتوء العينين . وجعلوا ذلك مدار شعرهم في الهجاء والتندر على المهجو ، فأثاروا العيب الخلقى وأرادوه ظاهراً بارزاً يُثير الزاوية ويشيع النكتة ، من غير رحمة أو شفقة ، كما فعلوا حين اخترعوا للمرأة صوراً داعرة ، لعلها هي منها تبرأ ، بل لعل الرجل من عيوبهم براء كذلك . ولسنا نبحت أمر الصدق أو الكذب فقد قيل . ما قيل ، ونحن نحصد القول ، ونعرض له على أنه فن من فنون الأدب ليس غير ، لا نعيب المخلوق ولا نتشنى منه ، إن صحت العلة ، لأننا لن نجرو في التطاول على معاتبة الخالق .

ونلاحظ أن شعراءنا قد تناولوا في أوصافهم المرأة والرجل على حد سواء ، فصوّروهما تصويراً مقذعاً ، وقد تلفت الشاعر أبو تمام إلى هذا فخصّ في حماسته باباً بهجاء النساء ومذمهن ، نريد أن نفتتح به هذه الأوصاف لقرب عهدنا بالحديث عن عرض المرأة ، فنقطف هنا من الثمار ما يسهل عرضه من غير لوم — كما فعلنا قبل قليل —

لقد حمل الشعراء منذ القديم على الخليفة والخليفة حملة قاسية ، وصوروا بشاعتهم تصويراً دفعهم إلى أن يقسموا بالأيمان المغلظة أن لا يجتمعوا بهنّ بعد ذلك ، عزوفاً عن المناظر البشعة وبعداً عن الدمامة المؤذية . ويحسن بنا أن نقف عند هؤلاء وقفة قصيرة . فقد قال شاعرهم يهجو إحدى النساء واسمها « جوهرة » :

أَلَمِّمْ بَوَطْبَاءَ<sup>(١)</sup> فِي أَشْدِّ أَقْهَاسَةٍ      فِي صُورَةِ الْكَلْبِ إِلَّا أَنَّهَا بَشَرٌ  
حَدِّبَاءَ وَقِصَاءَ<sup>(٢)</sup> صِيغَتِ صَيْغَةً عَجَباً      وَفِي تَرَائِبِهَا عَنْ صَدْرِهَا زَوْرٌ

فهى عظيمة الثديين ، واسعة الأشداق تشبه الكلب في صورتها ، وإن كانت من البشر ، حدباء قصيرة العنق ، غريبة الخلق ، عجيبة الصنع في هزائها ، قد ازور صدرها ، فباتت على أشبع صورة . وذلك لأن العرب فيما يبدو كانوا يحبون الثديين الصغيرين والفم الضيق والقامة المستقيمة ، لذلك جمع

(١) الوطباء : العظيمة الثديين .

(٢) الوقصاء : القصيرة العنق ، والترائب : جمع التريبة ، وهى موضع القلادة .

لها الشاعر كلَّ القبائح وحرَمها من المزايا فكرَّهها إلينا ، وقال شاعر آخر يصف وجهَ امرأةٍ أخرى :

بدا قَبدتُ لى شقةٌ من جَهَنَّم فقامتُ ومالمتُ بالبحيم يدان  
وغادرتُ أصحابي الذين تخلَّفوا بما شئتُ من خزي وطول هَوان  
وما كنت أدري قبلها أنَّ فى النسا جحيماً أراه جَهرةً وتسراني  
فلم يجد صورة لها قريبة من وجهها إلا صورة الجحيم . على ما كان العرب يتخيلونه من عذاب وسياط ونار موقدة ، ورأى أنها قطعةٌ من جهنم أفلتت إلى الأرض ، وراحت تمشي بين الناس تحملُ الشناعة والقباحة والعذاب ، لذلك هرب منها نجياً ، فلا صبر له على النظر إليها والبقاء بقربها . وهرب زميل له من امرأةٍ أخرى قد سلخت في العمر سنين عدة فقال فيها :

فإن أتوكَ وقالوا إنها نصفٌ<sup>(١)</sup> فإن أمثلَ نصفيها الذى ذَها  
وهكذا تولى أحسن نصفها من العمر والجمال ، وبقى القبح والشر .  
ومثله شاعر آخر وصف امرأة حوت من الصفات مالا تجده إلا في متحف الدمامة ، فقال :

رقطاء<sup>(٢)</sup> حذباء يبدى الكبد مضحكها قنواء بالعرَض والعينان بالطول  
لها فمٌ ملتقى شدقيهِ فقرتُها كأن مشفرها قد طرَّ<sup>(٣)</sup> مِن فيل  
أسنانها أضعفت في خلقها عدداً مظهرات<sup>(٤)</sup> جميعاً بالرواويل

فهى رقطاء حذباء ، لها أنف في طوله كأنف الخنزير ، وفم واسع يلتقى شدقاه عند نقرة قفاها ، كأن مشفرها قد قطع من فيل . ولها أسنان زوائد على عدد أسنانها ، تجعل منظرها كريهاً بشعاً إذا ما فتحت فيها لكلام أو ابتسام ، فكأنه مغارة قديمة قد تدلى من فوقها وتحتها أعواد ملتوية هى أسنانها .

( ١ ) النصف : المرأة الوسط بين الحدة والمسنة ، وقيل التى بلغت خساً وأربعين وقيل خمسين

سنة .

( ٢ ) الرقطاء : المنقشة بالبرش ، والقنواء : طويلة الأنف ، وإذا كان بالعرض كان كأنف

الخنزير .

( ٣ ) طر : قطع ( ٤ ) مظهرات : جعل لها ظهارة كما يجعل للمرش ظهارة ، والراوول .

والرائل سن زائدة تنبت للذابة تمنعها من الشراب والقضم ، ولعاب الدواب جمعها رواويل .

ويبدو بذلك أن العرب كانوا يُولون الوجه أكبر عناية، لأنه وحده يستقبل الناظر فيجذب أو يدفع، ويرسل السخر أو يبعث السحر، ولذلك أكثروا من وصف الفم والأنف والجبين والذقن؛ فقال شاعرهم يرسم لوحة كرهها في وجه امرأة:

ذَقْنٌ ناقصٌ وأنفٌ غليظٌ وجبينٌ كساجة القُسْطَارِ (١)  
قائمة القُصْعُلِ (٢) الضعيف وكفٌ خنصرها كذِيقِ القَصَّارِ (٣)

فرسم منها الذقن الناقص، والأنف الغليظ، والجبين الواسع، والقائمة

الضشيلة، والكف كمدق الثياب، فجعلها بعيدة عن جمال الجنس اللطيف غريبة الأعضاء، غليظة في كل شيء، واختار لها الألفاظ والمفردات بما يناسب مقامها وصورتها. وقد وصف شعراء آخرون أشياء أخرى تبعث الكراهية والنفور. فعرضوا للصوت، والرأس والشعر، واللحية، واللعاب، في الرجال وفي النساء، فصوروا هؤلاء وهؤلاء بأشكال مزرية مضحكة، حتى إنهم رسموا اللآليل في الوجه والجمة والأفخاذ، مما لا يجيز روايته هنا، وإنما نورد أبياتاً لشاعر مخضرم في هجاء أم ولد له:

لَهَا شَعْرٌ قَرْدٍ إِذَا أَزَيْتَ وَوَجْهٌ كَيِّضِ الْقَطَا الْأَبْرَشِ (٤)  
وَتَدَى يَجُولُ عَلَى نَحْرِهَا كَقَرْبَةِ ذِي الثَّلَاةِ (٥) الْمُعْطِشِ

فهى إذا تزينت بدت في شعرها كقرد سمج، ووجهها كوجه القطا الأبرش قد توزعت فيه نقط بيض، وتديها يجول لكبره على نحرها، ويهتز لضخامته كما تهتز قربة متدلية قد أعدت لضأن كثير. وأنت ترى أن هؤلاء الشعراء لم يُغفلوا صفة قبيحة في وجه أوفى قائمة أو في مفاصل وأعضاء إلا جمعوها وحشدوها وأبدوا تفقزهم منها، فكانوا في أوصافهم بارعين، وكادوا يلحقون بالوصافين

(١) الساجة: لوح الصيرى الذى يقوم عليه كفتا الشاهين إذا وزن به - والقسطار: الصيرى.

(٢) القُصْعُل: القصير والضشيل.

(٣) ذيق: مدق القصار الذى يدق عليه الثوب.

(٤) برش برشاً: كان على جلده نقط بيض فهو أبرش وهى برشاء.

(٥) الثلثة: الضأن الكثيرة، وجماعة الغنم، جمعها ثلاث وثلاث.

فى كتاب الوصف ، لو أنهم كانوا يريدون الخير أو يقصدون الوصف للوصف . ولكنهم فعلوا هذا للنكاية والتندر ، لم يرسموا واقعاً فيما نرى ، ولم يصوروا منظرًا للإعجاب به ودفع الناس إلى حبه ، وإنما قصدوا إلى الهجاء فوقعوا فى هذا الباب ، وتمثلنا بهم فى رسم العيوب الجسدية ، خلال السنين الأولى لأدبنا العربى . فلما تقدّمت الأيام كان الخطيئة بارعاً فى هذا الهجاء للخلقة ، حشد فى ديوانه صوراً كثيرة لكلّ من رأى وصادف ، حتى إنه رسم وجهه وخلقته فقال :

أَبَتْ شَفَتَايَ الْيَوْمَ إِلَّا تَكَلَّمَا      بسوء فما أدرى لمنّ أنا قائلُهُ  
أَرَى لى وَجْهًا شَوْهَ اللَّهِ خَلَقَهُ      فَتُبَّحَّحَ مِنْ وَجْهِهِ وَقُبَّحَّحَ حَامِلُهُ

وذهب هذا البيت مثلاً فى هجاء الشاعر لوجه يحمله ويكره أن يقابل به الناس لشذوذه وتنافر الأعضاء فيه . وأما الفم فقد رأت الزوجة فيه جيفة الخنزير وفضلت على القعود معه خوض المنايا فقالت :

لَوْ أَنَّ الْمَنَايَا أَعْرَضَتْ لِاقْتِحَمِهَا      مخافةً فيه . إن فيه لداهية  
فَمَا جِيفَةُ الْخَنَزِيرِ عِنْدَ «ابْنِ مُعْرَبٍ»      قتادة «إلا ريح مسك وغالية»  
فَكَيْفَ صَطْبَارَى يَا «قَتَادَةُ» بَعْدَ مَا      شممت الذى من فيك أثأى حماضيه

فانظر إلى هذه الزوجة تفضل جيفة الخنزير . وتراها مسكاً وغالية إذا قورنت برائحة الفم عند زوجها . فهى لا تصبر عليه . ولا تريد البقاء معه وإنما تهرب من بيت هو فيه لأنه يبعث الكراهية والشماس . وقال جرير يهجو أم الأخطل . ويصور منخريها :

غليظةٌ جليد المنخرين مصنّةٌ      على أنف خنزير يُشَدُّ نِقَابُهَا

فيرسم جلد المنخرين فى غلظة . ويرى فيها أنفاً كالخنزير قد شدّت عليه النقاب . فليس فى النظر إليها جمال أو دلال أو نشوة . وإنما بشاعة تفوق الخنزير بعد أن عرفنا ما للخنزير عندهم من قدر وحرمة !  
وجرير يهجو النساء التغليات فى صورة تُبعدهنّ عن كلّ حسن فيقول :

إذا ما رأيت اللّيت من تغليبة فقُبِّحَ ذاك اللّيت والمتوشعُ  
ترى محجراً منها إذا ما تنقَّبت قبيحاً وما تحت النقاين أقبحُ  
فيخيل إليك أن كل تغلية بشعة وأن عنقها قصير ، وأن عينيها من  
القباحة بحيث لا يجلهما نقاب ، ما تحت النقاين أقبح وأشدّ شراً ودمامة .  
وهو يلحّ على جمال المتخرين فيرى عند الرجال التغليين أهل الأخطل شعراً  
كثيراً في مناخيرهم ، وكان العرب يتفزون منه وينفرون . وينظر إلى أم الأخطل  
فيقول :

لمَّ يَجِرْ مُذْ خُلِقْتُ عَلَى أُنْيَابِهَا مَاءُ السَّوَاكِ وَلَمْ تَمْسْ طَهُورًا  
فَاعْجَبْ لَشَاعِرٍ يَتَصَلُّ بِهَذِهِ الْمَسَاوِي فَيُثِيرُهَا ، وَيَلْصِقُهَا بِالْمَهْجُو وَيُخْرِجُهَا  
إِخْرَاجًا حَسَنًا — كما نقول اليوم — في صورة بارعة تُضْحِكُ النَّاسَ مِنْ هَذِهِ  
الْأُمِّ ، حِينَ يَتَصَوَّرُونَ أَسْنَانَهَا السُّودَاءَ لَمْ يَمْرَبْهَا مَاءُ السَّوَاكِ ، وَهِيَ امْرَأَةٌ عِلْمُهَا  
الْإِسْلَامُ نِظَافَةٌ وَطَهَارَةٌ وَطَيِّبٌ ، فَلَمْ تَلْتَزِمْ أَمْرًا مِنْهَا ، وَغَدَتْ بِغَيْرِ طَهَارَةٍ أَوْ  
دِينٍ ، وَغَرِيبٌ أَنْ يَلْحَ فِي ذَلِكَ ، فَيَهْجُو الْقُبْحَ فِي كُلِّ شَيْءٍ حِينَ يَقُولُ :  
وَكَأَنَّمَا بَصَقَ الْجَرَادُ بَلِيَّتَهَا فَالْوَجْهُ لَا حَسَنًا وَلَا مَنضُورًا  
فَتَصَوَّرَ هَذَا الْجَرَادُ يَبْصُقُ فِي مَجْرَى الْعُنُقِ ، حَيْثُ يَطِيلُ الرَّجُلُ النَّظَرَ  
وَيَسْتَمِدُّ الْجَمَالَ ، وَيَسْتَوْحِي السَّحَرُ وَالطَّيِّبَ عِنْدَ الْمَرْأَةِ . بَلْ إِنَّهُ يَصَوِّرُ الْأَسْنَانَ  
وَقَدْ لَصِقَتْ بِاللِّثَّةِ ، وَمَالَتِ الْأُنْيَابُ عَلَى الْأَسْنَانَ فَأَصْبَحَ الضَّرْسُ كَالْحَافِرِ .  
وَيَرْسُمُ الذَّقْنَ فِي أَسْوَأِ شَكْلِ فَيُشَبِّهُ بِهِ أَعْضَاءَ الْحِمَارِ ، وَيَصِفُ الْبَطْنَ تَقْرِيرَ  
بِالْعُدْسِ وَالْقَوْلِ ، فَتَعْجَبُ لَخَيَالِ الشَّاعِرِ وَبَعْدَ نَظَرِهِ ، وَذَهَابِهِ فِي جَمْعِ شَتَاتِ  
الْقُبْحِ ، وَحَشَرِهِ فِي صُورَةٍ وَاحِدَةٍ . كَأَنَّهُ رَسَّامٌ يَعِشُقُ الْجَمَالَ وَيُكْرَهُ مَا عَدَاهُ ،  
بَلْ يَنْفَرُ مِنْهُ فَيُثِيرُهُ ، وَيَقُولُ فِيهِ هَذَا اللَّوْنُ مِنَ الْوَصْفِ وَالتَّنْدَرِ ، وَالتَّشْفِي وَالْإِنْتِقَامِ ،  
لَوْ وَضَعْتَ فِي لَوْحَةٍ لِانْقِلَبَ النَّاسُ أَمَامَهَا ضَاحِكِينَ .

وأبو نواس الحسن بن هاني ، يهجو البشاعة والقبح في صور بارعة كذلك  
تستدعي الإعجاب بريشة هذا الرسام المتفنن الذي بلغ قمة الشعر في كثير  
من أبوابه ، فقد حلق في فن الوصف والرسم — كما رأينا في كتاب الوصف —



وليس غريباً أن يجلّى في وصف الجسد الكريه والجسم الدميم ، فقد عشق  
الجمال على ألوانه كذلك . وكلف به على ضروبه فلم يغادر في أنواعه وصوره  
ميدان الإبداع والابتكار . ولقد رأينا أنه برع في هجاء المرأة وتصويرها ،  
فرسم أعضائها رسماً واقعياً يسخر منه ليضحك السامعين . فانظر إليه حين  
عرض للفم والثنايا فقال :

والفم من ضيقه إذا ابتسمت كأنه قصعة المساكين  
ولها ثنايا تحكى بهجتها وحسنها ألسن الموازين  
والجيد زين لمن تأمله أشبه شيء بجيد تنين<sup>(١)</sup>

وهذا جديد في الهجاء لم نعرفه لشاعر قبله ، ذلك لأنه عرّض للقبائح  
فجعلها في موضع السخرية كأنه يمدح فإذا به يتقلب ضاحكاً ، يشبه بما  
حوله من أشياء لا تخطر على بال ولا تمر بخيال ، فالفم كقصعة المساكين ،  
والثنايا كألسن الميزان ، والجيد كجيد تنين ، فكيف تكون صورة هذا الوجه  
في عالم الجمال والجلال ، اللهم إنه مسخها مسخاً وعرضها شوهاء ، كأشنع  
ما دار في لسان وقام في بيان . وقد زاد في مكان آخر فعرض للجسم كله ، وقال  
في امرأته :

شخصها شخص قبيح ولها وجه مؤلّى  
ولها ثغر كأنّ الآله غشاه بكحل  
تصف النكهة منها جيفة في يوم طل  
ردفها طست ولكن بطنها ركزة خل<sup>(٢)</sup>

فأنت تتصور الوجه مؤلّياً ، والثغر مغشى بكحل ، وريح الفم كالجيفة  
إذا أصابها طل فنشر الكراهية ، وردفها كالطست ، وبطنها كالوعاء فيه  
خل . فأى رسام هجاء ساخر كان ذلك الشاعر العباسي في اختياره لألوان  
التشبيه المقذعة وصور الجسد المفزعة ، يغط ريشته في ميدان الخل بدلا من  
الخمير ، والجيفة في يوم طل بدلا من زق خمير في يوم غائم . ولا شك في أن

(١) التنين : حية عظيمة .

.....

الناس يهربون من هذه النكهة ، ويستبشعون هذا الردف ، حين يعرضه النواصي  
هذا العرض المضحك الموجه في قوالب تخالها للمديح فإذا هي للتشجيع - كما قلنا - .  
وهو حين يصف المغنيات يرسمهن كأنخافس خلف العيدان ، وغناؤهن  
يهيج الزمهير ، فيقول :

إذا ما كنتَ عندَ قِيانِ مُوسَى      فعندَ الله فاحتسب السرورا  
أنخافسُ خلف عيدان قعودٍ      يطولُ قربُها اليومَ القصيرا  
إذا غنينَ صوتاً كان موتاً      وهيجن به عليك الزمهيراً

ولن نقف عند الصوت وما يطيل من يوم قصير : وما يبعث من مقت  
وزمهير . وإنما نقف عند أنخافس وهنَّ خلف العيدان . لتتخيل هاته  
المغنيات البشعات وقد تقاصرن وتطاولن للعزف والغناء في مجلس يريده الشاعر  
للطرب فإذا به يبعث الكرب ويدفع إلى الهرب .

وأبو العتاهية يعرض للون الأشقر في أهل البدو فيشكك في الحسب والنسب ،  
ومثله أبو تمام يعرض للون الأصفر فلا يرى فيه سقماً وإنما يجد فيه شقاءً ليس  
بعده شقاء لمن يتعب ويجهد .

وأما ابن الرومي فهو أكثر الشعراء تعرضاً للخلفاء والقسمات بالهجاء والسخرية .  
فهو بارع في ريشته الخزلية . يظهر المعاييب والمساوي في لغة صافية لا تجد فيها  
لفظة نابية إلا ما ندر فهو ينم عن روح رسام كاريكاتوري في الهجاء يكاد  
يكون عالمياً - كما نقول اليوم - فألواحه تُضحك التكاالي وتبعث الدمع في  
العيون لشدة ما تثير من إغراف في التندر والإضحاك . وليس للمهجو إلا أن  
يتوارى عن العيون . وأن يختفي وراء الأبواب . فلا يظهر للناس خوفاً من أن  
يعروه برسمه ويتبينوه بصورته التي أبدعها ابن الرومي هديةً للقيح . ولعل ابن  
الرومي جاوز حد الصديق والواقع فيما كان يرسم . فنظر إلى الناس من خلال  
نظارة سوداء كما قالوا . ولم تقع عينه إلا على مشهد بشع ومنظر ينفر . فقد  
كان صاحب نظرة خاصة إلى الجمال ، تؤذى نفسه مشاهد الدمامة . وسنطيل  
الوقوف عنده لنستعرض من ديوانه هذه الصور التي خلدها في متحف السخرية  
والهجاء . قال في أبي قرّة :

أَقْصَرَ وَعَوَّرَ وَصَلَعَ فِي وَاحِدٍ  
 شَوَاهِدٌ مُقْبُولَةٌ نَاهِيكَ مِنْ شَوَاهِدِ  
 تُخْبِرُنَا عَنْ رَجُلٍ مُسْتَعْمِلِ الْمَقَافِدِ  
 أَقْمَاهُ الْقَفْدُ فَأَضَى حَتَّى قَائِمًا كَقَاعِدِ (١)

فجمع في لوحة واحدة قصراً وعوراً وصلعاً لرجل واحد ، وجعله قميناً  
 تزدريه العين وتعافه النفس ، ومع ذلك يضحك القارئ ، لخفة هذا الشعر في  
 الوزن واللفظ والصورة ، فيشعر بروح الشاعر تضحك لما تصف قبل أن يضحك  
 الناس . ويلح أبو نواس على الصلغ فيقول :

يَا صَلْعَةَ لِأَيِّ حَفْصٍ مَمْرَدَةٌ كَأَنَّ سَاحَتَهَا مِرَآةٌ فَوَلَاذِ  
 تَرْنَ تَحْتَ الْأَكْفِ الْوَاقِعَاتِ بِهَا . حَتَّى تَرْنَ بِهَا أَكْنَافَ بَغْدَادِ  
 وَلِلَّذِينَ أَصَابَهُمْ صَاعٌ شَدِيدٌ يَجْزَعُونَ مِنْ وَصْفِ الشَّاعِرِ ، وَيَتَلَمَّسُونَ مَكَانَ  
 ذَلِكَ مِنْ رَعْوَسِهِمْ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَصِيبَهُمْ رِشَاشُ هَذَا الرَّسْمِ ، فَهُوَ يَشَبُهَ الرَّأْسَ بِمِرَآةٍ  
 فَوَلَاذِ تَرْنَ تَحْتَ الْأَكْفِ فَتَدَوَّى بِهَا أَرْجَاءُ بَغْدَادِ عَلَى سَعَتِهَا . وَنَلَا حَظَّ أَنْ ابْنَ  
 الرُّومِيِّ يَشْتَبِي أَنْ تَقَعَ الْأَيْدَى عَلَى الْمُهْجَوِّ فِي أَكْثَرِ أَوْصَافِهِ ، كَأَنَّهُ لَا يَقْنَعُ بِمَا  
 يَرْسُلُ عَلَيْهِ لِسَانَهُ مِنْ ضَرْبَاتٍ ، يَرِيدُ أَنْ يَشْرِكَ بِهَا غَيْرَهُ . وَهُوَ حِينَ يَقُولُ فِي  
 اللَّحَى لَا يَقِلُّ عَنْ وَصْفِهِ لِلصَّلْعِ فَانْظُرْ إِلَى صُورَةِ اللَّحْيَةِ بِزِيْشَةِ ابْنِ الرُّومِيِّ :  
 إِنَّ تَطْلُ لَحْيَةً عَلَيْكَ وَتَعْرُضُ فَالْخَالِي مَعْرُوفَةٌ لِلْحَمِيرِ  
 عُلِقَ اللَّهُ فِي عَذَارِيكَ مَخْلَاةٌ وَلَكِنِّهَا بَغِيرَ شَعِيرِ  
 لَوْ غَدَا حُكْمُهَا إِلَى لَطَارَتْ فِي مَهَبِّ الرِّيحِ كُلِّ مَطِيرِ  
 فَهِيَ أَشْبَهُ بِالْمَخْلَاةِ عُلِقَتْ فِي عَذَانِ هَذَا الرَّجُلِ ، وَلَكِنِّهَا خَالِيَةٌ مِنَ الشَّعِيرِ  
 فَلَا نَفْعَ فِيهَا ، وَلَوْ كَانَ أَمْرُهَا إِلَيْهِ لِأَطَارَهَا فِي مَهَبِّ الرِّيحِ كُلِّ مَطِيرِ ،  
 وَلِأَصْحَابِ اللَّحَى الطَّوِيلَةِ الشَّاذَةِ أَنْ يَرَوْا رَأْيَهُمْ فِي هَذَا الشَّعْرِ ، وَأَنْ يَتَلَمَّسُوا فِيهِ  
 مَوْقِعَ الْإِنْتِقَامِ وَالتَّشْنِئَةِ . وَقَبِيحَ الْمَنْظَرِ يُوْحِي إِلَى هَذَا الشَّاعِرِ أَلْوَانًا مِنْ  
 الْمُهْجَمِ وَالتَّسْلِي يَقُولُ فِيهَا :

تَخَالَهُ أَبَدًا مِنْ قُبْحِ مَنْظَرِهِ مُجَادِبًا وَتَرًّا أَوْ بِالْعَا حَجْرًا

(١) أقماه : أى صغره وأذله ، القفد : صفع القفا بباطن الكف .

كأنه ضفدع في بلعة هوم<sup>١</sup> إذا شدا نغماً أو كمرر النظرا  
لو كان لله في تخليدنا قدراً مع قُربه ما أردنا ذلك القدرًا  
ولا يشفق ابن الرومي على هذا المغنى حين يشبهه بالضفدعة في شكله ،  
أو كأنه بالبع حجرًا ، بل إنه يكره الخلود بقربه ويتمنى البعاد عنه ولو بالموت .  
وذلك لأنه زرى الشكل ، بل منكر الصوت ، فهو حين يغنى يحشرج فيقول  
فيه :

يفتحُ فاهُ من الجهاد كما يفتحُ فاه لأعظم اللقم<sup>(١)</sup>  
أبعُ فيه شدوذ حشرجة منظومة في مقاطع النغم  
تبرُته غصّة وهزّته مثل نيبب التيوس في الغنم  
والقم يفتح للصوت والغناء كما يفتح للقم الكبيرة سواء بسواء ، فيبدو مثل  
كهف مظلم تنطلق منه الحشرجة إثر الحشرجة ، يقطعُ النغم ويهتز كالتيس ،  
فلا يُطرب ولا يُسكر ، وإنما يبعثُ مع الخمر شعوراً بالقتل كأن السامع  
يشربُ دمه في كأسه . وابنُ الرومي أطال النظر في المغنين لعصره ، فرأى القبح  
في وجوههم ، والشدوذ في أصواتهم ، والنكر في أعناقهم حين تهتز وتتلوى ،  
فوصف قينة تغنى :

تَضْغُطُ الصَوْتُ الذى تشدو به غصّة في حلقتها مُعْترِضه  
فإذا غنت بدا في جيدها كل عرق مثل بيت الأرضه<sup>(٢)</sup>  
وأرانا حركاتها وهى تضغط الصوت ، فتبدو العروق في جيدها كما تبدو  
الأرضة ، فتلاعب بالمعاني والأشكال ، وقرنها بصور محتقرة ليضعف من شأن  
المهجو وليعرض موضع العيب في الحركات ، ويصوّر ببراعته ولطف تخيله  
للغناء القبيح صورة لا تشبهها الصور الجامدة عند المصورين القدماء ، وإنما  
تجمع إلى ذلك الألوان والحركات كأحدث ما يصنع التصوير الفنى في  
عصرنا . ويعجبك قوله في رجل طويل الأنف :  
وإذا نهضت كبا بوجـ هك للجبين المعطس<sup>(٣)</sup>

(١) نب التيس : صاح عند الهياج ، والنبيب هو الضجيج في الصوت .

(٢) الأرضة (بفتح الحين) دويبة تأكل الخشب .

(٣) المعطس . الأنف ج معاطس .

إن كان أنفك هكذا فالفيل عندك أفطس  
وإذا جلست على الطريق ق ولا أرى لك تجلس  
قيل السلام عليكما فتجيب أنت وبخرس

إن أنف الفيل بالنسبة إلى أنفه أفطس ، فإذا جلس للناس قال الناس : السلام عليكما ، كما قالوا بعد ذلك بقرون لأنف « سيرانو » الشاعر على لسان « إدمون رويستان » ، فجعلوا للأنف كيانه مثل كيانه لشدة طوله وعظم مكانه . وقد وصف الذين قبله الأحذب فما علقوا ببعض نبوغه ، ووصف الغربيون الأحذب بعده على لسان « فيكتور هوجو » فما صنعوا مثله فاسمعه يلقول :

قصرت أخادعه وطال قذآله فكأنه متربص أن يصفعا (١)  
وكأنما صفت قفاه مرة وأخس ثانية لها فتجمعا

فهو يرسم هذا الأحذب في قصر القفا حتى لكأنه صفع مرة فانتظر أن تعود إليه الكف ، فلبث حيث هو ينتظر أبد الدهر . وهذا القول مشهور سائر يحفظه الناس جميعاً له ، ويعترفون بيده فيه ، وقد قال العقاد : « ومثل هذا الشاعر يهجو حيث شاء بأداته الحاضرة كالرسم الذى يحمل مصورته الشمسية ليلتقط بها المناظر التى تروقه وتسرعيه أينما كان (٢) » بل تمنى أن ينقل المصورون ديوانه بريشتهم ليكون من ذلك مجلدات ضخام من خير ما تستنبطه القرينة الفنية من صور الهزل والجد ومعانى التهجين والتحسين . ولن نوغل في نقل صورته الهاجية عن الأكل يقتلع الطعام كالرفش أو كالسيل أو كوكيل يتيم ، أو اجتار الأضراس تتكادم وتتحرك كالرحى ، لأن ذلك يبعدنا في الحديث ، ويضعنا بحيث نحبز لابن الرومى ، والقدماء عرفوا له قيمته في هذا الباب وقرنوه بدعبل وجعلواهما علمى الهجاء فى الأدب العربى (٣) .

(١) الأخدع : عرق فى العنق فى موضع الحجامة ، والقذال : جاع مؤخر الرأس .

(٢) مراجعات ، ص ١٥٦ .

(٣) قال أبو العلاء المعرى :

لو نطق الدهر هجا أهله كأنه الرومى أو دعبل

ونحن نريد أن تنتقل إلى زميله ابن المعتز ، فقد صنع في الهجاء كذلك  
صنيعاً جميلاً ، وسخر وتسلى وتندر ، فقال في عجوز :

عجوز تصباني وهي بكرٌ بزعمها ومُذْ ألف عام قد وجى خدّها الواجى  
ترى شعرها تحت القناع كأنه ضفائرُ ليف في هدية حجاج  
فأبدى صورة لها خالدة على الأيام لأنها تقع في كل عصر ومصر ،  
وتدور بين الناس ، فلا تشعر بما يبدو على الأفواه من بسطات أو من سخر ،  
تصباني وقد خدد الزمان في وجهها سطور العجز والجهد . وشعرها تحت القناع  
كالليف يهديه الحجاج . وثمة عجوز أخرى علق بوصفها فشبه شعرها بالقطن  
المنفوش ثم قال في ريقها :

خبيثة ريق الريق تحسب هدهداً يبيضُ فيها ثاوياً ويُعششُ  
وفي هذا إقذاع وبراعة ، حين نتخيل الهدهد وقد جعل من فيها عشه ،  
فأودع فيه ما يملأ الفلاة رائحة خبيثة كريهة .  
والمتنبى تسلّم راية الهجاء في عصره ، فوصف كافوراً بسواده وغلظ  
مشفره . فقال .

وأسودُ مشفرهُ نصّفهُ يُقالُ له : أنتَ بدرُ الدجى

فبالغ على عادته وجعل مشفر الرجل يعادل نصف جسمه . ومع ذلك  
يقول له الناس متملقين : أنتَ بدرُ الدجى ، ثم وصف جسمه وبطنه فقال :  
من كل رِخْو وكاء البطن منفتق لا في الرجال ولا النسوان معدود  
إن امرأ أمةٌ حبل تدبرهُ لمستضامٌ سخين العين مفؤود  
فهو رخو البطن منفتق . لا هو في الرجال ولا هو في النساء . بل إنه امرأةٌ  
حبل في هيئته وسمته . ومع ذلك يحكم مصر كلها ويدبّر أمرها ، ويملك  
الزمام فيها . فيالتعاسة هؤلاء المحكومين . ويرسمه بعد ذلك بقوله :

وتُعجبني رجلاك في النعل إنني رأيتُك ذا نعل إذا كنتَ حافياً  
وأُنك لا تدري ألونك أسودٌ من الجهل أم قد صار أبيض صافياً

وَيُذَكِّرُنِي تَخِييْطُ كَعْبِكَ شَقَّةَ      ومَشِيكَ فِي ثَوْبٍ مِنْ الزَّفْتِ عَارِيَا  
وَمَثَلِكَ يُؤْتِي مِنْ بِلَادٍ بَعِيدَةٍ      لِيُضْحِكَ رَبَّاتِ الْحَدَادِ الْبَوَاكِيا

فلا فرقَ بين كافور وهو حاف وبينه وهو لا بس ، لأن لون قدميه كالون النعل لشدة السواد فيهما ، وكأنه شقق كعبه ومشي بجسد أسود ، يابس الزفت حين يتعرض ، وهذا مما يُضحك الثكالي وربات الحداد البواكي ، فكيف لا يتخذ منه المتنبي صورةً للتندر والسخرية ، فيشهد الناس على أنه عبدٌ حصيٌ محبوب من الحبشة ، زرى الشكل ، بشع المنظر ، قبيح الصورة . يتلهى الرائي بالنظر إليه كما يتلهى الغلمان بالنظر إلى الحيوان الغريب في حديقة الحيوان . فهو ضحكة الدهر على لسان هذا الهجاء .

وأصاب المتنبي ابنَ كيغلاغ في شكله ووجهه فقال فيه :

وجفونُهُ ما تستقر كأنها      مطروقةٌ أو فُتَّ فيها حصرمُ  
وإذا أشار محدثاً فكأنه      قردٌ يقهقه أو عجوز تلطمُ

فهو يحرك جفونه مراراً في عصبية دائمة . كأن عينيه مطروفتان أو كأن الحصرم قد عصر فيهما ، فلا يفتأ يُغلِقهما ويفتَحهما . وهو كثير الإشارة لا يكاد يستقر في مجلسه ، يقوم ويقعد ، ويضطرب ويصيح ، فكأنه قرد يقهقه أو عجوز تلطم ، وهو لشدة عيه يشير بيديه حين لا يستطيع الإفصاح بلسانه ، وأين منه الإفصاح بل أين منه الوقار والهيبة . ثم يفيض عليه من لسانه فيقول :

ما زلتُ أعرفه قرداً بلا ذنب      صفراً من البأس مملوءاً من النزق  
تستغرق الكفَّ قودَيه ومنكبه      وتكتسى منه ريحَ الجورب العرق

فيجعله شبيهاً بالقرد في شكله ، ولكنه بلا ذنب ، ويؤكد أنه صفر من الشجاعة ، وكله طيش ونزق ، ويرسمه صغير الحجم ، دميم الجسم حتى لكان أكف الصافعين تستغرق قوديه ومنكبيه جميعاً ، وتعود الكف بعد ذلك بريح نتن خبيث هو ريحُ جسده الكريه . أقرب ما يكون إلى ريح جورب عرق قد ملأ المكان فساداً ونتاجاً .

وابنُ سكرة الهاشمي ، أنشد كثيراً في هذا الباب ، ولكنه أسفٌ في ذكر الأعضاء ، فضيَّق علينا سبيل الاستشهاد ، وقد قال في متحدّث يهجوهُ :

وإذا تحدّث أحدثت لهواته      فترى الأنوف تلوذ بالأردان  
وترى أخادعه تُعطى كأرنب      عكفت عليه مناسرُ العقبان

فرسم الحديث والأخادعَ وجعل لهما صورة عجيبة لا يحسنها غيره في مثل هذا اللون ، وقد أكثر من مقاذره في الهجاء فقال في عدوه وقد حشد له أصناف القبائح :

يا نَتْنَ رائحة الطبيب      سخ إذا تغير في القدور  
يا عشَّ بيض القمل قف      سرخ في السوالف والشعور  
يا بغضَ تدخين الجشا      في الصوم من تخم السحور<sup>(١)</sup>  
يا كل شيء متعب      مُتعبد صعب عسير

ولعلنا نأنف من أن نشم رائحة هذه كلها مجتمعة ، لأنها تقزز النفس ، فرائحة الطبيب وقد تغير ، وعش بيض القمل ، والجشا بعد تخم السحور ، تبعث من الروائح المنتنة ما لا يتصورها عقل ولا يجمعها خيال . ولن نستزيد في التعليق على هذا اللون ولن نستكثر منه هنا ، ففي «يتيمة الدهر» أصنافٌ لمن يستطيع أن يتحمل قراءتها وتفهمها والصبر عليها .

وللشريف الرضي في هجاء رجل أبياتٌ نُوردها لنبين عن روح العصر :

ومروّع لي بالسلام كأنما      تسليمه مما يمض وداع<sup>(٢)</sup>  
تفقاً بمنظرة العيون إذا بدا<sup>(٣)</sup>      وتقيء عند غنائه الأسماع  
نزوى الوجوه تفادياً من صوته      حتى كأن سماعه إسماع<sup>(٤)</sup>

وهو في هذا قريبٌ من ابن الرومي إذ يجدُّ في سلام الرجل ما يمض ، وفي

(١) جشأت نفسه جشاً : نهضت إليه وارتفعت واثارت للقاء .

(٢) أمض : أوجع وآلم .

(٣) فقا العين : كسرهما وقلمها .

(٤) أسمع فلاناً : شتمه ، والإسماع : الشتم .



منظره ما يقذى ، وفي غنائه ما بقيء الأسماع ، لذلك يزوى وجهه تفادياً من صوته ، لئلا يجرح أذنه أو يחדش سمعه . وصور الشاعر الغزى وجه خصمه فجعله منتقباً بالكلوح قال :

وإن بدا سافراً لناظره فوجهه بالكلوح منتقب<sup>(١)</sup>  
للجمع والمنع قائم أبداً كالفيل لا تثنى له ركب

وهذه الصورة مزرية ، تشبه الرجل بالفيل ، حين يقوم وحين يثنى الركب في الجمع والمنع ، ووجهه عابس مكشّر ، بشع كربه المنظر . وللشاعر الحلى في وصف فم المهجو صورة قريبة مما رأينا يقول :

فم ليحي ريجهُ منتنٌ لم يُرَ يوماً مثله قط  
لو أنه عضّ على قارة لعاف أن يأكلها القط

فتصور رائحة فم تزيد في نثها على رائحة الفار ، وتصور هذا القط الذى يلتهم الفار أنى رآها ، فإذا نزلت من فم الرجل عافها لأنها سقطت من ثقب لم يعهد الحيوان أكره منه أو أشد خبثاً .

وقد سار المعاصرون في هجائهم على مثل هذا الإقذاع فوصف شاعرهم في الشام لحية خصم له فقال فيها :

لا يأخذُ المشطُ منها فيها الفصوصُ الغوال  
كم شعرة فوق أخرى تيسدو كروث البغال  
المسكُ فيها مضاع بين الخنا والضلال

يرى أبشع منظر في هذه اللحية على شدة المسك فيها ، فشعراتها كروث البغال منظرًا وريحا . وللشاعر الدمشقى خليل مردم صورة يسخر فيها من رجل رآه :  
أحنى شواربه ولحيته معاً<sup>(٢)</sup> أرأيت رأس التيس ساعة يسقط

(١) كلع وجهه كلوجاً : تكشر في عيوس ، أو عيس فأفرط في تعبه .

(٢) أحنى شاربته : بالغ في أغله ، واستقصى قصه . وفي الحديث أمر أن تحن الشوارب

وَمَشَى الْعَرَضْنَةَ حَاسِراً عَنْ رَأْسِهِ<sup>(١)</sup>      فَكَأَنَّهُ إِذْ ذَاكَ قَرْدٌ أَشْمَطُ  
وَيُشِيرُ إِذْ يَهْدِي بَعْشَرُ أَصَابِعٍ      وَيَدُورُ مِثْلُ أُنَى الرِّيحِ<sup>(٢)</sup> وَيَلْبَطُ  
وَكَلَامُهُ مُتَقَطَعٌ بِسَعَالِهِ      كَالْعَيْرِ يَهْرُ فِي النَّهْقِ فَيَعْفُطُ<sup>(٣)</sup>  
فَكَأَنَّهُ بِضَجِّجِهِ وَعَجِيجِهِ      ذُو جَنَةِ بَقِيودِهِ يَتَخَبَطُ

وهذه الصورة المعاصرة تكاد تقع من اللفظ والأسلوب والصورة مواقع الشعر القديم . فهي تشبه رأس الرجل برأس التيس المسموط وتجعله في شكله كالقرد ، ثم ترسمه كاللغة المعروفة . أو كالعير ينهق حين يسعل ، بل إنه كمجنون يتخبط في قيوده . وللشاعر نفسه صورة أخرى في هذا اللون يقول فيها :

جَهْمٌ كَظَلِّ الصَّخْرِ مَنْ يَرَهُ يُقِلُّ      هُوَ وَجْهٌ مَيَّتٌ بِالسَّخَامِ مُحْنَطُ<sup>(٤)</sup>  
فَإِذَا تَمَعَّرَ أَوْ تَكْشَرُ ضَا حَكَ<sup>(٥)</sup>      فَكَأَنَّهُ مِنْ وَجْهِهِ يَتَغَوُّطُ  
وَإِذَا تَنَحَّجَ فِي الْكَلَامِ حَسْبَتُهُ      ثَوْرًا يَخُورُ عَلَى الْعَلِيقِ وَيَنْحَطُ<sup>(٦)</sup>

فهو مفرطٌ في سماجته ، غليظٌ في هيئته كظل صخرة ضخمة ينضج كالميت طلى بالسخام وحنط ، فإذا ضحك كشر عن وجه كأنه يتغوط ، وإذا تكلم فكأنه ثور يخور على عليقه وهو يصيح بصوته المنكر . ولعل سماجة الرجل لا تختلف في هذا الوصف عن سماجة زملائه من غلاظ الجسد والأكباد جُمعت له البشاعة كما جمعت لأقرانه قبله ، فتناولها المعاصري الألوان المتندرة الساخرة ، فقال حافظ إبراهيم في رجل عظيم البطن ضخيم البدن :

عَطَلَتْ قَنَ الْكَهْرِبَاءِ فَلَمْ تَجِدْ      شَيْئاً يَعَوِّقُ مَسِيرَهَا إِلَّا كَا  
تَسْرَى عَلَى وَجْهِ السَّيْطَةِ لِحْظَةً      فَتَجُوبُهَا وَتَحَارُ فِي أَحْشَاكَ

( ١ ) العرضنة : البغي في المشي من النشاط ، وإذا كانت مشيته في شق فيها بغي من نشاطه .  
( ٢ ) أبو الرياح : شخص صغير من حديد يوضع في أبل البنيان ويدور باتجاه الرياح ، وقد عرف قديماً في شعر البحترى .  
( ٣ ) البهر . تنابع النفس وانقطاعه من الإعياء ، وعفط الضأن : ذئبت بأنوفها كما ينثر الحمار ، وعفط ضرط .

( ٤ ) السخام : سواد القدر ، والفهم .  
( ٥ ) تمعر : تغير ، وعلته صفة ، وأصله قلة النضارة .  
( ٦ ) نحط : صوت من الإعياء .

ولن نذهب بعيداً في الاختيار والتمثيل ، فهذا أمرٌ يطول ، ونحسب أننا عرضنا لألوان الهجاء في هذا الباب ، وحشرنا أنواعه ، وجمعنا الأقوال فيه ، فأبرزنا لكل صورة تخيلها الشعراء ، ولم نغادر فيما نرى كبير أمر مما يُهجي به الإنسان إلا رويناه ، اللهم إلا ما لم نستبح سرده هنا . ولعلنا جعلنا في هذا المتحف الكاريكاتورى ألواحاً تفيد في فهم الطريقة التى سلكها أدباؤنا على العصور في شعرهم ، فجاءوا بروائع البيان وخلدوا بقولهم على الزمان ، ذلك لأن هذا الفن صعب المراس ، شديد الأسر ، قوى الوقع ، نذيرٌ بتوريط القائل وإيقاعه في حبائل المهجوين ، وربما أودى بالحياة ، فلا يقبلُ الناسُ جميعاً قولاً في مثل هذا الإقذاع إذا كانوا يستطيعون الانتقام لكرامتهم وأنفسهم . وقديماً ساق مثله إلى قتل الشعراء وسجنهم وتعذيبهم لعلمهم يرتدعون أو يرعون ، أو يتوبون عن هذا القول ، ففيه حطٌ من قيمة المهجوة ، وتندّر به وسخرية وتهكم وضحك ، فيسير ذكره على الأفواه تبتسم إشفاقاً حيناً وانتقاماً حيناً آخر . ولكنه الفن على كل حال يبدو كآلة التصوير تلتقط ما ترى من ألوان وظلال ، بل إنه كريشة المتفنن تجسم وتضخّم كيف تريد لتبلغ من المهجوين الغاية ، وقد رأينا أن أكثرهم نال ما أراد ووقع حيث تمنى ، فكان التوفيق حليف العباقرة من المهجّاتين رفّعهم إلى مصاف الشعراء العالميين ، وهذا الذى سعيينا إليه جاهدين في عرض ما كان منهم من شرّ كثير لم نصنعه بأقلامنا ، وناقل الكفر ليس بكافر ، فيما يقولون .

## الفصل الثالث

### الهجاء الأخلاقى

#### المعايب والمثالب

« إذا هجوت فأضحك »

جرير

الضعة والهوان — الغدر — ذل الجار — امتهان النساء  
بالحرقة — البخل والشح — الثقل — الأحق

وصف المؤرخون جزيرة العرب فقالوا إنها قاسية عنيفة ، وإن العربى عاش فيها على نضال فى سبيل العيش وكفاح فى سبيل اللقمة ، فعلى ساكنيها أن يسعوا وأن يشقوا ، لذلك كانت المنعة والقوة والبأس من أسباب الظفر فى الحياة . والقوى فيها هو الذى يحيا والضعيف يلجأ إلى القوى ويلوذ بأكنافه . وهكذا جعلوا الشجاعة والبطولة وركوب المخاوف والأخطار وتحمل المكاره واقتحام الخطوب من مزايا الرجال ، ومحامد الصفات . فلم يكن فيما يبدو لهذه الجزيرة من مثل أعلى فى نظر القوم إلا القوة ، لأنها وحدها رمز النضال وشارة القتال وكفاية المحارب . ولا يلام قوى إذا اغتصب أو سلب ، وإنما يلام الضعيف الحقير الدليل المظلوم . وليس فى هذه البلاد قبل الإسلام قانون يعاقب القوى على ظلمه ؛ ولا يقلّ الحديد إلا الحديد . ولما نشأت الدولة الإسلامية ظلّ العربى يلجأ إلى القوة والعصبية والقبيلة يعتمد على أقرانه وأبناء عشيرته وأسرته . فقد كان يرى فى الاستغاثة بالسلطان ضعفاً ومذلة . لذلك احتقر العربى أصحاب الصناعة والزراعة والتجارة . ونظروا لإيهم كما ينظرون إلى وادع خائف مستقر لا يسعى إلى مغامرة ولا يخوض فى زحام . وبهذا مدحوا الشجاع البطل وذموا الحبان الخائف . واستحبوا لأنفسهم أن يموتوا على خيوطهم محاربين من أن يموتوا على فراشهم حتف أنفهم راغمين .

وكان لهذه الحياة القاسية أن تتطلب محاربين أقوياء وأن تسعى إلى كثرة الرجال ووفرة النسل ، فهم عدة الحرب وحماة الحمى ، والذابون عن الحياض ، والحياة عندهم قوة وبأس شديد . وكان البطل الفارس يخلص من مغامرة ليدخل في أخرى ، على جسد نحيل وقوام سمهري ، شديد النشاط . لذلك ذموا من كان على عكسه سميناً ضخماً قصيراً ، يركن إلى الراحة ، ويستنم إلى القرار والترف والحمول . على أنهم نظروا إلى المرأة نظرة أخرى فرأوا لها الترف والنعيم ، لأن وراءها رجلاً يدفع عنها العمل والسعي والصنعة والحرفة ، فلا تقوم إلا لحديث أو زيارة ، من جارة إلى جارة ، تتعطر وتترين ، وتفوح منها رائحة الجنان ، فهي نؤوم الضحى مترفة العيش — كما بسطنا في كتاب الغزل — . واستحبوا للمرأة أن تغتصب لتنجب ، وللزوج أن يغضب لينجب لأنه يفضل العنف والقوة في كل شيء ، فيخطف المرأة من زوجها ويغلبه عليها ، على كثرة الحراس حولها .

وننتج من هذا كله مثل عليا نظروا إليها نظرة الاحترام هي القوة ، والكرم ، والشجاعة ، والبطولة . كما نظروا إلى ما يخل بها نظرة الاحتقار والهجاء والازدراء ، فكانوا يهجون العربي بالضعف ، والخور ، والكذب ، واحتراف المهن الحقيرة .

وتناولوه بالهجاء كذلك إذا كانت النساء عنده تعمل وتسعى في البيت والمرعى ، وأثاروا هذه المثالب والمعائب ، وتحدثوا فيها ، وقال شاعرهم حولها ، فجسم الخطب ورسم العيب في شكل يُزرى بصاحبه ويحط منه . ولم يقصد الشاعر بإبراز هذه المعائب نصحاً أو درساً ، وإنما روى سهمه وأشبع سيفه وشنى قلبه ، انتقاماً وتشفيماً معتمداً على الغضب والحق ، لا على العقل والحلم والأناة . لذلك كانت أبيات الهجاء مقدودة من ألفاظ شديدة الوقع قوية الأسر ، نارية محترمة ، لا تشبه في شيء ما كان عند الغربيين من هجاء . وقد ولد الهجاء فيما رأينا عند العربي منذ نشأته ، في الجاهلية ، وسار في الإسلام كذلك ، ومشى على العصور ، فتأثر بالبيئة والإقليم والوسط والثقافة والوعى والمفاهيم . وسنعرض لألوانه على التسلسل ، في مختلف المعايير الأخلاقية كما كانوا ينظرون إليها من خلال مبادئهم .

نظر طرفة بن العبد إلى خصمه ، فصور أخلاقه من وشاية ونميمة فقال فيه يتشنى ويتنقم :

وَفَرَّقَ عَنْ بَيْتِكَ سَعْدُ بْنُ مَالِكٍ      وَعَمراً وَعَوْفاً ما تشنى وتقولُ  
وَأَنْتَ عَلَى الْأَدْنَى شِمَالٌ عَرِيَّةٌ<sup>(١)</sup>      شَامِيَةٌ تَزُورُ الْوُجُوهَ بَلِيسَلٌ

فقص علينا كيف فرق بين بيتي أهله وذويه ما كان يأتيه من أقوال يتقولها ونمائم يسعى بها ، ويمشى بين العشيرتين حتى فرق الجمع وأوقع الشر ، وهو على أقاربه كالريح الشمالية الباردة تحرق الوجوه إذا هبطت في الشتاء ، ويصبحها بلل من المطر ، وتندى يقبض الجلد ويحفف المفصل والوجه .  
وقال مساور بن هند في هجاء بني أسد يصفهم بالذل والهوان :

زَعَمْتُمْ أَنْ لَأَخَوْتَكُمْ قَرِيشٌ      لَهُمْ إلفٌ وليس لكم إلافٌ  
أُولَئِكَ أَوْمَنُوا جَوْعاً وَخَوْفاً      وَقَدْ جَاعَتْ بَنُو أَسَدٍ وَخَافُوا

يُخاطب بني أسد ، ويكذب دعواهم في انتماهم إلى قريش ، وتنسبهم بالقرب منهم ، والواقع أن لقريش إيلافاً في رحلتى الشتاء والصيف وليس لبني أسد مثلهم ، فأولئك آمنهم الله من الجوع والخوف ، وهؤلاء جائعون خائفون .  
وفي كتاب « الحماسة » شعر يشبه هذا الذى أوردنا ، يندد بالحبس والقعود عن القتال ، والسكوت على الضيم ، ويصف المهجوعين بالنعام تتسابق في الهرب ، وتطلب النجاء لنفسها ، مفلولة مغلوبة ، ذليلة حين تجرد السيوف عليهم من أعمادها ، فيقول شاعرهم في خصمه :

غَدَرْتَ بِأَمْرِ كُنْتَ أَنْتَ اجْتَلَدْتَنَا      إِلَيْهِ وَبِئْسَ الشِّيمَةُ الْغَدْرُ بِالْعَهْدِ  
وَقَدْ يَتْرُكُ الْغَدْرَ الْفَتَى وَطَعَامَهُ      إِذَا هُوَ أَمْسَى جُلْهَ مَنْ دَمَ الْفُصْدُ

فهو يشير إلى أمر خطير يحقره العرب وهو الغدر ونكث العهد ، والفتى يؤثر الإقامة على الوفاء مع شدة الفاقة ، ويطلب اكتساب المحمدة وإن كان مسكيناً ذا متربة ، حتى إذا أمسى كان جل طعامه فصيد الدم . والهجاءون ينددون بالغدر أبداً ، وسوء الحوار ، فيقول شاعرهم :

(١) العرية : الباردة ، شامية : من ناحية الشام .

لا يَرتجى الجارَ خيراً في بيوتهم ولا سَحالةً من شتم وألقاب  
فجارهم متبدلٌ فيهم ، يائسٌ من خيرهم ما دام في حبيهم ، يُلقى  
بالاستخفاف ويُرى بالألقاب ويُشتم . وسار زهير بن أبي سُلمى على هذا ،  
فدَمَّ من لا يحفظ الجار :

وجار سارٌ مُعتمدٌ إليكم أجراءته المخافة والرجاءُ

كما سار الحطيئة في السبيل نفسها فتناول من لا يحير ولا يكرم :

جارٌ لقوم أطلالوا هونَ منزله وغادرُوهُ مقياً بينَ أرماس<sup>(١)</sup>  
مَلوا قيرَاه وهَرَّتْهُ كلابُهُم وجرحوه بأنياب وأضراس<sup>(٢)</sup>  
دَع المكارم لا ترحل لبيغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

وهذا كلام لا تدخله بذاعة لفظ أو تقعرّ تعبير ، فليس فيه إفحاش  
ولا إقذاع ، ولكنه فنٌ جميل في إذلال المهجو ورميه بالانصراف عن الكرم  
والنبيل ، في صور حسية عربية جاهلية ، تجد في نسيان الجار مذلةً وفي  
الوقوف عن الضيافة معرةً ، فالكلابُ تدفع الناس عن البيت والرجل يقيم  
مكسواً مطعماً ليس له همٌّ من دنياه إلا أن يأكل وأن يلبس ، وفي هذا هجاء  
عظيم بليغ . والشاعر يهجو أمه لأنها لا تحفظ السرّ كما هجاها الجاهلي قبل  
قليل ، فقال :

إتنحى فاجلسى منى بعيداً أراح الله منك العالمينا  
أغربالا إذا استودعت سرّاً وكانوا على المتحدثين<sup>(٣)</sup>  
حياتك ما علمت حياةً سوء وموتك قد يسر الصالحينا

فهى ثرثرة تُفشى السرّ ثقليةً على الناس ، فحياتها شرٌّ ، وموتها خيرٌ  
وأبقى ، وهذا دليل على ما كان يحبه العربُ في النساء ، وما كانوا يكرهونه منهن .  
وهو صورةٌ للهجاء بارعةٌ ما نجد ألطف منها لفظاً وأوقع منها أثراً فيما قرأنا لهذا

(١) الهون : المذلة ، الأرماس : القبور .

(٢) هرته : نبيحته .

(٣) الغربال : النمام ، الكانون : الثقليل من الناس .

العصر ، لأنه كالمهجاه الجاهلى ليس فيه بداء وفحش ، وقد كان أشد المهجاه عندهم فيما نعلم أعنفه وأصدقه ، وما خرج عن ذلك فهو قذف وإفحاش كما كان فى هجو الأعراض ، مما تراه فى غير هذا المكان .

وقد عكف الشعراء الأمويون على أخلاق الجاهلية فى أكثر هجائهم ، فرموا من كان يحترف الصناعة والمهن المحترمة ، فكان جرير يهجو الفرزدق زاعماً أن أجداده كانوا يعيشون بالحدادة ويقضون أيامهم قرب النار والحديد والشرر والدخان والكير ، فكانوا كالرقيق والعبيد ، ولذلك قال جرير :

ما بال أملك إذ تسربل درعها      ومن الحديد مفاضة سربالى  
حمت وجهك فوق كيرك قائماً      وسقيت أملك فضلة الجريال<sup>(١)</sup>  
فانفخ بكيرك يا فرزدق وانتظر      فى كرباء هدية القفال<sup>(٢)</sup>

فرسم أم الفرزدق فى ثياب الصنّاع تعمل مع ابنها على مقربة من هذا الجحيم خلال الحرّ ، وابنها يقوم على العمل ، يسقيها فضلة الخمر جزاء ما تقوم به ، فهو نافع الكبير ينتظر ثوابه على أيدي الزبائن . وليس الفرزدق أقل منه تعلقاً بهذه الصور فهو يهجوهم بأن قوم جرير فقراء كذلك يصطنعون الخمر فى تنقلهم ، فيقول :

يا ابن المراغة كيف تطلب دارماً      وأبوك بين حمارة وحمار  
قبح الإله بنى كليب لإنهم      لا يغدرون ولا يفون لجار  
يستيقظون إلى نهاق حمارهم      وتنام أعينهم عن الأوتار<sup>(٣)</sup>

فيعجب كيف يريد جرير أن يتنافس قوم « دارم » وهو يعيش بين حمارة وحمار ، لإنهم قوم لا يفون لجار ، ولا يستيقظون لثأر ، ولا يهبون إلى مكربة ، وإنما يوقظهم نهاق الحمارة ، وصوت الأعيار . وهكذا وصمت النساء فى معركة المنافرة والمناقضة ووقعن فى الألسن الخبيثة كالجاهلية سواء بسواء .

(١) الجريال : الخمر - انظر القصيدة فى ديوان جرير ص ٤٧٠ - ٤٧١ .

(٢) كرب الرجل : أكل التمر .

(٣) الأوتار : جمع وتر ، وهو الثأر .



وحين اشتد الهجاءُ في العصر الأموي اختلط بالحماسة والفخر ، وتناول القبيلة والعشيرة كلها ، ودخل في الدين فهجا بالشرك والكفر ، ولكنه رجع إلى البخل ، والجبن . ، وحماية الجار فلام الذين خرجوا على المثل العربية العليا المعروفة فتعلقوا بالصناعة والمهنة ، أو كانوا على ذلٍّ ومهانة في العيش المأجور ، فقال الفرزدق في جرير :

كَمْ سَخَالَةٍ لَكَ يَا جَرِيرُ وَعَمَةٍ      فَدَعَاءٌ قَدْ حَلَبْتُ عَلَى عَشَارِي<sup>(١)</sup>  
شَغَاةٌ تَقْدُ الْفَصِيلَ بِرَجْلِهَا      فَطَّارَةٌ لِقَوَادِمِ الْأَيْكَارِ<sup>(٢)</sup>  
كَانَتْ تَرَاوَحَ عَاتِقِهَا عُلبَةٌ      خَلْفَ اللَّفَاحِ سَرِيعَةُ الْإِدَارِ

فجعلله من أسيرة ذليلة أكثر أهلها يقومون بحرف تافهة ، بل إن النساء فيها رعين وحلبن واشتغلن وذلك للرجال فلا يجب أن تمسه النساء ، ويقول في غيرها :

كَانَتْ تَطْيِبُ بِالْفَسَاءِ وَلَمْ يَلِجْ      بَيْتًا لَهَا بِذِكْيَةِ عَطَارُ

فرأى أن الفساء لازمها عمرها كله ، ولم يدخل عليها عطر أو طيب ، والنساء الناعمات يفخرن بما حُرمت منه هذه المرأة ، فهي مهينة فقيرة تعيش بين الحيوانات وَرَوْتُ البقر . والفرزدق يكثر من هذا المعنى فيلصق المسك بالرجال ويلحق ريح الخروء والفساء بالمهجوة ؛ وكم ندّد بمن يخبى الرجاء ، فقال :

فَلَا يَرْجُ عَبْدُ اللَّهِ رَاجٍ فَلِنَّمَا      أَمَانِي عَبْدُ اللَّهِ أَضْغَاثُ أَحْلَامِ

وقد أخذ المعنى من القرآن ، وهجا الرجل بأنه يعد ولا يني ومن يرجو عنده أمراً فقد أضاع عمره في انتظار وأمل . وفي البخل يتناول الأخطل مهجويه فيقول :

قَوْمٌ إِذَا اسْتَبَجَ الْأَضْيَافَ كَلْبُهُمْ      قَالُوا لِأَمِهِمْ يُبُولُ عَلَى النَّارِ  
فَتَمْسُكُ الْبُولَ ضَنْئًا أَنْ تَجُودَ بِهِ      وَمَا تَبُولُ لَهُمْ إِلَّا بِمَقْدَارِ

(١) الفدع : خروج مفصل الإبهام مع ميل في القدم قليل ، حلبت : أى أنها راعية .

(٢) الشغارة : التي تشفر الفصيل برجلها إذا ذنا من أمه ليرضع ، والبطارة من الفطر وهو

الحلح ، بالضم ، واللباطة بالفتح ، والقوادم : حديد القادوس لها شاذ ، الفدع :

فهو يجمع عليهم نبح الكلاب للأضياف ونظرهم إلى الأم تبول أمامهم ،  
وبخلها حتى بالبول ، وذلك منتهى الإقذاع في رعى الناس بإطفاء النار والبعد  
عن القرى . وقال أحد أبناء المهلب يهجو قوماً لبخلهم :

قومٌ إذا أكلوا أخفوا كلامهم واستوثقوا من رواج الباب والدار  
لا يقبسُ الجارُ منهم فضل نارهم ولا تكف يدٌ عن حرمة الجار

وهذه صورة نادرة للبخل وردت الأضياف وإقفال الباب دونهم ، فلا يفيد  
جار من نارهم ، ولا يدفعون عن مجاوريتهم جوعاً أو عاراً بل لأنهم يسطون على  
حرمة من حولهم . وهجا شاعرٌ قوماً في تأخيرهم عن تلبية النداء والاندفاع إلى  
الحرب فقال :

إذا بكريّةٌ ولدت غلاماً فيا لؤمًا لذلك من غلام  
يزّاحمُ في المآدب كلَّ عبدٍ وليس لدى الحيفاظ بذي زحام

فهم كثرةٌ عند المآدب والولاثم ، قلةٌ عند الاستنفار في حماية الحياض  
والأعراض ، يتخلفون عند الشجاعة ويتقدمون عند المآكل ، وكم يهجو الشعراء  
خصوصهم بالجن والهرب من المعركة فيقول أحدهم :

إن أنتم لم تطلبوا بأخيكُم فذروا السلاح ووحشوا بالأبرق<sup>(١)</sup>  
وخلدوا المكاحلَ والمجاسدَ والبسوا • نقب النساء فيس رَهطُ المرهق<sup>(٢)</sup>

يريد أنكم إن لم تتأروا لصاحبكم فتزويوا بزى النساء ، لأنكم أقرب إلى  
صفاتهن في القعود عن الثأر والشجاعة ونجدة الضعيف .

وظلت هذه الأخلاق مرعية على العصور ، فهجا الشعراء كلَّ بخيل  
ورسموا له صورة تختلف قوة وضعفاً وقرباً من الفن وبعداً عنه ، فقد قال  
شاعرهم في ذم البخل :

سمعتُ المديح أناساً دونَ ما لهم ردٌ قبيحٌ وقولٌ ليس بالحسن  
فلم أفزُ منهم إلا بما حملتُ رجلُ البعوضة من فخارة اللبن

(١) الأبرق : المكان فيه حجارة سود وبيض .

(٢) المجاسد : جمع المجسد ، وهو الثوب المشيع صبداً ، المرهق : المضيق عليه .

فتصورُ هذا المالَ الذى عاد به الشاعر من ممدوحه ومقداره ما تحمل رجل  
البعوضة من اللبن ، وهذا جميل حسن يروق للسمع ويحلو للخيال . وقال دعبل  
الخرامى يذمُّ بخيلاً :

أثقل مطبخاً لا شيء فيه      من الدنيا تخاف عليه أكلُ  
فهذا المطبخُ استوثقت منه      فما بالُ الكنيف عليه قفل<sup>(١)</sup>  
ولكن قد بخلت بكل شيء      فحتى السلح منك عليك بخل

فهو قد أثقل مطبخاً فلا يطعم ضيفاً ، وقد سدَّ الكنيف لشدة بخله  
فخاف حتى السلح كما خافت المرأة حتى البول . وذلك منتهى المجاء ودقة  
التصوير وبراعة السخرية ، ثم قال فى مكان آخر :

وإنَّ له لطبخاً وخبزاً      وأنواع الفواكه والشراب  
ولكن دونهُ حبسٌ وضربٌ      وأبوابٌ تطابقُ دونَ باب  
يذودونَ الدبابَ يمرُّ عنه      كأمثال الملائكة الأعصاب

فكيف ترى هذا الرجلَ حين يكرم ضيوفه بالحبس والضرب وإغلاق  
الأبواب ، يطرد حتى الدباب ، على أن له طبخاً وفواكه وشراباً فما ينقصه  
شيء ، لكنها خلة البخل قد سدَّت عليه سبيل الضيوف . وقد كرد الشعراء  
وقوفَ الحجاب على الأبواب وكثرتهم عند الأغنياء يمنعون الطارق ويدفعون  
القادم ؛ وقالوا فى ذلك كثيراً حتى أسرفوا ، ولا سبيل لى رواية كل ما قالوا ؛  
ففى كتب الأدب أمثلة منه . وكرهوا الجهلَ فذموا صاحبه ، واستبشعوا اللؤم  
فتناولوا اللثام وقالوا فى ذلك كثيراً ، فيه النثر والشعر .

وكان أبو العتاهية يذمُّ الحرصَ ، ويرى أنه يضرُّ بصاحبه ويذل أهله ،  
ويجد أن الشهوات قاتلة ، ورب ساعة شهوة أورثت صاحبها حزناً طويلاً . ولبشار  
صورة فى أبى عمران يصف فيها غلاظته وثقله فيقول فيه :

ربما يثقل الجليس وإن كا      ن خفيفاً فى كفة الميزان  
كيف لا تحملُ الأمانة أرضاً      حملت فوقها أبا عمران

فهو يرسم منه طباعه رسماً بارعاً فيه سخرية لازعة ، يضحك منها الناس ، وهو يصف ثقيلآ آخر فيهجوه بقوله :

وكيف يخف لي بصري وسمعي وحول عسكران من الثقال  
 قعوداً حول دسكرتي وعندى<sup>(١)</sup> كأن لهم على فضول مسال  
 إذا ما شئت صَبَحَنِي « هلال » وأى الناس أثقلُ من « هلال »<sup>(٢)</sup>

وكم يحلو لنا أن نردد هذه الأبيات في ثقل يحمل بنا فلا ينصرف ، ويثقل علينا كأنه رضوى يدفع السرور ويحجب الفرح بظله الظليل الكدر . وأبونواس يهجو البخل كذلك في ألفاظ لطيفة خفيفة :

ألومُ « عباساً » على بُخله كأنَّ عباساً من الناس  
 وإنما العباس في قومه كالثوم بين الورد والآس

فهو يتناول الرجل كما تناوله القدماء ، فيكرّ عليه ويعمله كالثوم بين الورد والآس ، فهو كرية الرائحة لشدة ضنه وإمساكه في الإنفاق ، ويقول كذلك في الفضل الرقاشي :

أما تَ اللهُ من جُوع رُقاشاً فلولاً الجوعُ ما ماتت رقاشُ  
 ولو أشممت موتاهم رغيفاً . وقد سَكَنُوا القبورَ إذاً لعاشوا

وهذه الصورة مضحكة تبين الرجل وتجعله لشدة بخله يموت من الجوع ، فلو شَمَّ الرغيف بعد موته لعاش . ومثله مسلم بن الوليد هجأ البخلاء ، فقال في سعيد بن سلم :

إذا سيلَ عرفاً كسا وجههُ ثياباً من الأوم حمراً وسوداً  
 يُغيرُ على المال فعلَ الجواد د وتَأبَى خلائقه أن يجودا

فيرسم وجهه حين يسأل عرفاً وقد صُيغ بالحمرة والسود ، ويرسمه حين يُغير على المال كأنه الجواد ، ولكنه في السعى إليه وجمعه كأنه يفتش عنه في

(١) الدسكرة : القرية والصومعة وبيوت الأعاجم يكون فيها الشراب ، وقيل بناء كالقصر حوله بيوت تجتمع فيها الشطار .

(٢) وفي كتاب الثقلاء أشعار كثيرة في هذا الباب يحسن الرجوع إليها .

أطراف الأرض ، ويقف لاصطياده كما يقف الصياد عند شاطئ فقير في السمك .

وطبعي أن يصور الشعراء العباسيون بخلاءهم تصويراً مبدعاً فهم سألوا وحرموا ، فأصابوا الذين حرموهم وتناولوهم بأفطع الصفات ؛ ولسنا هنا لنُدافع عن الذين حَبَسوا العطايا وسدوا الأبواب ، ولكننا نجدُ الهجاء في غالبية هذا العصر مصطنعاً مُغرَضاً متكلفاً ، لا يصف حقيقة الناس ، ولا يجعل الشعر في مستوى الصدق كما كان في بعض الشعر الجاهلي والإسلامي . ونحن إنما نعرض للهجاء على أنه فن سواء أصدق قائله أم كذب ، وما نسعى إلى معرفة الحقيقة التاريخية فيه ، ولكننا نبين الأسلوب الذي طرقه الشاعر الهجاء ليس غير . ونريد أن نقول إن الشعراء في بعض العصور العباسية لم يَغضبوا للبخلاء على أنهم بخلاء ، ولكنهم غضبوا لأصحاب الجاه والثراء على أنهم مَنَعوا أموالهم عن الشعراء المادحين القاصدين ، ولعلَّ سبب هذا الشعر حرمان وخيبة ، وخاصة عند هؤلاء الذين يرجون نوالاً ويعودون بخفسي حنين .

فقد قال أبو تمام مصرحاً بطلبه ، وهجا حين خاب في مسعاه :

أَعْمَلْتُ فَيْكَ قَصَائِدِي وَوَسَائِلِي      فَحَرَمْتَنِي فَلَيْسَ أَجْرُ الْعَامِلِ  
مَا خَلَفْتُ حَوَاءُ أَحْمَقَ لَحِيَةٍ      مِنْ سَائِلٍ يَرْجُو الْغِنَى مِنْ سَائِلِ

فتصور هذا الشاعر يطلبُ غنى ، فإذا رفض العطاء جعله مثله سائلاً فقيراً ! ولو كان كذلك لما أنشد فيه قصائده وبذل فيه وسائله ، ولكنه بكى ضياع شعره ، وخسارة القول فيه بعد الإلحاح في الطلب ، وقال في موضع آخر يُبين عن هذا الغل في صدره لمن يخس شعره حقه ولم ينقده ثمنه :

يَا عَذَارَى الْكَلَامِ صَرُّنَ مِنْ بَعْدِي      سَبَايَا تُبْعَنُ فِي الْأَعْرَابِ  
عَبَقَاتُ السَّمْعِ تَبْدَى وَجُوهَهَا      كَوُجُوهُ الْكَوَاعِبِ الْأَتْرَابِ

فهو يأسف لشعره يُباع في الأعراب الذين لا يفقهون مكانه ولا يعرفون له وزناً فلا يقدرونه حق قدره . وهو كلام جميل مبتكر أشبه ما يكون بالعداري والكواعب الأتراب ، ويلج الشاعر على هذا المعنى في هجاء صالح الهاشمي :

وَمَلِكٌ فِي كِبَرِهِ وَتُبِّلَهُ  
بَذَلْتُ مَدْحِي فِيهِ بَاغِي بَذْلَهُ  
مَنْ بَعْدَ مَا اسْتَعْبَدَنِي بِمِثْلِهِ  
يَلْحِظُنِي فِي جَدِّهِ وَهَزَلَهُ  
يَعْجَبُ مِنْ تَعَجُّبِي مِنْ بُخْلِهِ  
يَا وَاحِدًا مَقْتَدِرًا بَعْدَهُ  
مَا أَضْيَعَ الْغَمْدَ بَغَيْرِ نَصْلِهِ  
وَالشَّعْرَ مَا لَمْ يَكُ عِنْدَ أَهْلِهِ

بذل الشاعر في ممدوحه ما استطاع من جهد وشعر طيب فلما خاب رماه  
بالمهجاء . وأسف لأنه استعبده بالمطل ثم اعتذر بالجهل ، ولكن الشعر يضيغ  
عند غير أهله كما يضيغ الغمد بغير نصله . وهكذا نبرهن أن مبعث هذا المهجاء  
ردّ كان غير جميل . و"بُخْلٌ" في العطاء لم يقع من الشاعر موقع القبول ، فنار  
وهاج وأرسل فيه هذه الصفات الدميمة ، فجعله "سوقة" وجاهلاً وأسيراً ، وكذلك  
يقع في السنة المهجاء من لم يدفع بالتي هي أحسن ، ومن لم يُكرم الشعراء  
ويُغدق على الأدباء ، وهذا الذي قلنا ينطبق على أكثر الشعر الهجائي قاله  
هؤلاء المداحون حين "حرموا" فألصقوا بالمهجوين ما شاء خيالهم أن يتكر من ذمّ  
وقصاص وتشفّ ، ونحن على معرفتنا بكذب الهجائيين نريد أن نتبين - كما  
قلنا - طرائقهم في المهجاء وأساليبهم في التصوير ومعانيهم في هذا الباب ،  
لنتهي إلى أنهم شبهوا هؤلاء البخلاء بصور مقذعة فيها هذا الذي أوردنا ، وفيها  
أن هؤلاء تيسر وأنهم عبيد . وأنهم في أخلاق البغال . فيقول أبو تمام :

لَهُمْ حُلٌّ حَسَنٌ فَهَنْ بِيضٌ وَأَخْلَاقٌ سَمِجَنٌ فَهَنْ سُودٌ  
وَأَخْلَاقُ الْبِغَالِ فَكَلٌّ يَوْمٌ يَعْنُ لِبَعْضِهِمْ خَلْقٌ جَدِيدٌ  
وَأَكْثَرُ مَا لِسَائِلِهِمْ لَدِيهِمْ إِذَا مَا جَاءَ قَوْلُهُمْ : تَعَوُّدٌ  
أَنَاسٌ لَوْ تَأَمَّلَهُمْ « لَبِيدٌ » بَكَى الْخَلْفَ الَّذِي يَشْكُو لَبِيدُ (١)

قال ذلك بعد أن خاب رجاءه في أهل نصيبين . وَرُدَّ طلبه عندهم فأب  
بالخيبة وعاد بالمهجاء يرسم بُخْلَ القوم ومطلهم للمواعيد . ولسنا نُحصى هذا

(١) يشير إلى قول لبيد :

« ذهب الذين يعاشرون في أكنافهم . وقتت في خلف كحلل الأحاب »

اللون عند أبي تمام فهو كثير ، ومثله عند اليعتري . ولكن ابن الرومي يهجو  
البخل في صورة فنية جميلة لا نجدُ محيداً عن روايتها قالها في عيسى :

يُقْتَرُّ عَيْسَى عَلَى نَفْسِهِ      وَلَيْسَ بِيَاقٍ وَلَا خَالِدٍ  
فَلَوْ يَسْتَطِيعُ لَتَقْتِيرَهُ      تَنْفَسُ مِنْ مَنْخَرٍ وَاحِدٍ

فهو يرسم شحّه وإمساكه عن الناس في تشبيه رائع ، حيث جعله يقرّ  
بالتنفس ، والتنفس لا يكلف شططاً ولا يُؤدى إلى فقر ، ولكنه تعود البخل  
فصارت أعضاؤه شحيحة كلها متناسبة في ذلك ، فأفقه يتنفس من منخر واحد  
لا يوجد بالهواء حين يرسله ، وهو بذلك يشبه المرأة التي ضنت بالبول فلا ترسله إلا  
بمقدار . ويرى ابن الرومي في الهجاء كما رأى غيره قبله أن بعض الناس يسعى  
إلى أن يهجي ليسير ذكره في الدنيا فيقول :

يَسُومُ هَجَائِي كَمَا يُنَوِّهُ بِاسْمِهِ      وَفِي السَّبِّ ذِكْرٌ لِلثِّمِ وَمَفْخَرُ  
أَخَالِدُ لَمْ أَنْكَرْ لَكَ النُّكَرَ وَالْحَنَا      بَلِ الْعُرْفُ مِنْ أَفْعَالٍ مِثْلِكَ مِنْكَرُ  
حَدَاكَ إِلَى الْخَيْنِ حَتَّى اسْتَرْثَنِي      عَلَيْكَ وَإِنِّي فِي عَرِينِي لَمُخْذَرُ  
فَدَوَّلْتُكَ مَا حَاوَلْتُهُ فَبَلَّغْتُهُ      وَرَدْتُ وَلَكِنْ لَا لِإِخَالِكَ تَصْدُرُ  
فَقَدْ كُنْتُ نَسِياً لَا تَحْسُ وَلَا تَرَى      زَمَاناً طَوِيلاً فَاصْبِرِ الْآنَ تَذَكَّرُ  
سَتَرَوِي رَوَاةَ الشُّعْرِ فَيْكَ قَصَائِدُ      يُغْنِي بِهَا مَا نَوَدَى : اللَّهُ أَكْبَرُ  
سُدَاهَا مَخَازِيكَ الَّتِي قَدْ عَلِمْتَهَا      وَلُحْمَتَهَا مِنِّي الْكَلَامُ الْمَحْبَرُ

فهو يجد حتى في السب ذكرًا للثيم ، وشهرة للمنسى . وللشاعر فيه جولات  
سداها المخازي ولحمتها الكلام الموشى الجميل ، وهذا الشاعر كرميله أبي تمام  
يطلبُ الردفَ فحين يُرَدُّ طلبه يهجو فيعرف بقوله :

مَدَحْتُ أَبَا الْعَبَّاسِ أَطْلُبُ رَفْدَهُ      فَعَظِيبُنِي مِنْ رَفْدِهِ وَهَجَا شِعْرِي  
فَالْهَجَاءُ كَانَ تَهْدِيداً وَوَعِيداً يَقُولُ فِيهِ هَوْلَاءُ الشُّعْرَاءِ حِينَ يَخْبِيُونَ فَيَسْعُونَ  
إِلَى صُورٍ تَهْجُمُ عَلَى النَّاسِ فَتَصْمَهُمُ بِالْبُخْلِ وَالشَّحِّ وَالضَّنَّةِ ، وَقَدْ تَجَلَّهَمُ  
مَوْضِعَ السُّوءَاتِ وَالْمَغَايِبِ كُلِّهَا ، كَمَا قَالَ ابْنُ الرَّومِيِّ فِي خَالِدِ الْقَعْقَطِيِّ :

يَا مُسْتَقِرَّ الْعَارِ وَالنَّقْصِ      أَغْنَتْ مَخَازِيكَ عَنِ الْفَحْصِ

أَنْتَ الَّذِي لَيْسَتْ لِسَوَاتِهِ وَلَا لِنَعْمَى اللَّهِ مِنْ مُحْصٍ  
مَعَائِبُ النَّاسِ وَسَوَاتِهِمْ قَدْ جَمَعْتَ لِي مِنْكَ فِي شَخْصٍ  
فَجَمَعَ السَّوَاتِ كُلَّهَا وَالْمَعَائِبَ فِي شَخْصِهِ مَا يَكَادُ يُقَلَّتْ مِنْهُ عَيْبٌ أَوْ  
خَزَى إِلَّا كَانَ فِيهِ ، وَهَذَا هِجَاءٌ قَاسٍ شَدِيدٌ ، وَلَكِنَّا نَجِدُ هِجَاءَهُ فِي إِسْمَاعِيلَ  
ابْنِ بَلْبَلٍ أْبْرَعَ مِنْهُ حِينَ يَقُولُ :

عَجِبَ النَّاسُ مِنْ أَبِي الصَّبْرِ إِذْ وَلَّى بِغَدِ الْإِجَارَةَ الدِّيَوَانَ  
وَلَعَمْرِي مَا ذَاكَ أَعْجَبُ مِنْ أَنْ كَانَ عَلِجًا فَضَارَ مِنْ شِيَابِنَا  
إِنْ لِلْجَدِّ كِيمِيَاءٌ إِذَا مَا مَسَّ كَلْبًا أَحَالَهُ لِنَسَانًا  
يَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ كَمَا شَاءَ عَمَتِي شَاءَ كَاتِنًا مَا كَانَ

فَهُوَ يُحِيلُهُ مِنْ مَقَامٍ إِلَى مَقَامٍ وَمِنْ صُورَةٍ إِلَى صُورَةٍ حَتَّى لِيُعِيدَ أَصْلَهُ إِلَى  
الْكَلْبِ فَيَجْعَلُهُ إِنْسَانًا بَعْدَ ذَلِكَ ، وَكَذَلِكَ يَفْعَلُ اللَّهُ مُعْجَزَاتِهِ ؛ وَنَرَى فِي تَرْجِيدِ  
الْكَلِمَاتِ هُنَا إِتِمَامًا لِبرَاعَتِهِ فِي هَذَا الْهِجَاءِ . وَيَشَاءُ ابْنُ الرُّومِيِّ أَنْ يَتِمَّ الْمَعَائِبَ فِي  
هَذَا الْبَابِ فَيَهْجُو ثَقِيلًا بِقَوْلِهِ :

وَتَقِيلُ كَأَنَّهُ ثَقُلُ دَيْنٍ تَتَقْدَاهُ طَالِعًا كُلُّ عَيْنٍ  
حَمَلُ اللَّهِ أَرْضَهُ ثَقَلَتْ فِيهَا وَبَرَاهُ عِلَاقَةُ الثَّقَلَيْنِ

فَهَلْ تَجِدُ أَشَدَّ أَثَرًا مِنْ هَذَا الثَّقِيلِ حِينَ يَزِيدُ عَلَى ثَقْلِ الْأَرْضِ كُلِّهَا ،  
تَتَقَدَّى لِمَنْظَرِهِ الْعَيْنَ وَيَجِدُهُ النَّاسُ مَنْفَرًّا كَالْدَيُونِ . وَيُضَيِّفُ الْمَتْنِي إِلَى الْمَعَائِبِ  
الْمَذْكُورَةِ خُفَّةَ الْحَلْمِ وَقَلَّةَ الْعَقْلِ فَيَقُولُ فِي كَافُورِ :

لَقَدْ كُنْتُ أَحْسِبُ قَبْلَ الْخَصِيِّ أَنَّ الرُّعُوسَ مَقَرُّ النَّهْيِ  
فَلَمَّا نَظَرْتُ إِلَى عَقْلِهِ رَأَيْتُ النَّهْيَ كُلَّهَا فِي الْخَصِيِّ

فَهُوَ يَجْعَلُ عَقْلَهُ فِي غَيْرِ مَكَانِهِ وَيُرْسِمُ لَهُ صُورَةَ مَعْرِفَةٍ وَلَكِنَّا فَنِيَّةٌ فِي السَّبْكِ  
وَالْتَرَكيبِ وَاللَّفْظِ ، وَحِينَ يَتَنَاوَلُ الْبَخْلَ يَتَّخِذُ سَبِيلًا جَدِيدَةً فِي الْوَصْفِ فَيَقُولُ  
لِلْمَلِكِ مِصْرَ :

أَمْسَيْتُ أَرْوَحُ مُشْرِئًا خَازِنًا وَيَدَا أَنَا الْغَنَى وَأُمُوالِي الْمَوَاعِيدُ  
إِنِّي تَزَلْتُ بِكَذَابِينَ ضَيْفَهُمْ عَنْ الْقَرَى وَعَنِ التَّرْحَالِ مُحَدُودُ



جود الرجال من الأيدي وجودهم من اللسان فلا كانوا ولا الجود

ذلك أنه انتظر النوال فما نال ، وعاد غنياً بالآمال فقيراً بالأموال ، فالجود لم يتعد حدود اللسان ولم يبلغ إلى الأيدي ، ومرد ذلك إلى حسب الأسود المحصن وضالة نسبه وقلة سؤدده وضياح أصله ، فقد كان قدره لا يجوز الفلسين في يد النخاس وما في ذلك عيب لأن الفحول عاجزة حقاً عن الحمل فكيف إذا كان المقصود هذه الحصية السود . وهو في أغراضه يشبه القدماء ، فيلوم من لا يحفظ الجار ولا يصون عرضه ، ويأخذ ذلك على سيف الدولة فيقول فيه :

رأيتكم لا يصون العرض جاركم ولا يدر على مرعاكم اللين  
وتغضبون على من نال رفقكم حتى يعاقبه التنقيص والمأن

يقصد بذلك أنه أهين بحضرة الأمير فلم يحمه ، ونال من ماله فأبطل هذا العطاء من وأذى ، لذلك عاتبه وهجره . والشريف الرضى كمهيار الديلمي يهجون من يمنع المَالَ أو يعبس في وجه السائلين أو لا يني بوعده ، ومثلهما شعراء مدحوا فحرموا فهجوا ، بل طلبوا أن يُردّ شعْرهم إليهم لأن القصد قد خاب فيهم ، وهم حين ينالون من خصومهم يردون فيهم أوصاف الكلب ، والتيس ، والخنزير ، والبغل ، والرائحة الكريهة ، والوجه البشع ، كما فعل القدماء قبلهم ، لم تغيّرهم الحضارة ، ولم تبدّل نظرهم إلى الأسلوب والفن سكّني الحواضر من بغداد ودمشق والقاهرة فهم يذمون الغدر ، والكذب ، والبخل ، والجبن ، وذل الجار ، والثقل والغلاظة .

فلما كان العصر الحديث تغيرت الأخلاق وتبدلت العادات وقام في دنيا العربية شعور جديد نحو العرض والجار والجبن والبخل ، وأصبح هناك من يحمي الناس من تطاول الألسنة ، وسنت القوانين لردع من يثلب الأعراض ويتناول الأعضاء بالذكر الداعر أو العبارة الفاحشة ؛ وانقلب التشنّي والانتقام إلى مداعبة وملاسة وتهكم وسخرية ، فقال حافظ إبراهيم في باع كتب صفيق الوجه :

أديمٌ وجهك يا زنديقٌ لو جُعلتُ منهُ الوقاية والتجليد للكتب  
لم يعلمها عنكبوتٌ أينما تركتُ ولا تخافُ عليها سطوة اللهب

فجعل وجه الرجل أشدَّ وقاية من جلد الكتب فلن يعلموها عنكبوت ، ولن  
يخاف عليها سطوة النار ، لأن وجهه لا يتأثر بشيء . وهكذا نرى أن المحارم  
لن تصاب ، ولن يلزم الذي يمنع الناس من أكله وشربه وبيته ، لأن الحياة  
الاجتماعية الأوروبية تغلغت في الشرق فصرفت الناس إلى أمور أخرى ،  
ونجفت من الضيافة والسؤال وطرق الأبواب إلا ما كان في بعض مناطق البلاد  
العربية حيث عاش بعض الأمراء والملوك على شيء مما كان يعيش عليه الأجداد ،  
ففتحوا بابهم للقاصدين ونالوا المديح ، ولم نسمع بهجاء من هذا النوع إلا  
ما ندر مما لا يخصه ناقد بفصل أويهم له بنقد وجمع . ولكنه نشأ هجاء آخر  
سنقول فيه حين الكلام على الهجاء السياسي .

## الفصل الرابع

### الهجاء السياسي

الوراثة في الخلافة — حق آل البيت —  
تظلم الشيعة — الشكوى من المستعمرين

كانت القبيلة مظهرًا من مظاهر الوطن عند العربي ، يعيش في حماها ويدفع عن حياضها ، ويدود عن حدودها . وكان هذا الوطن الصغير يحملُ اسم القبيلة ، في فخر وزهو ، ويتحالف مع قبيلة أخرى فيتكوّن من مجموعة القبائل جبهة أو وطن ، وكان المفهوم السياسي ضيقاً جداً يقف عند الانتصار أو الانكسار ، لأن الغارات كانت تتعاقب لضرورة العيش والحياة وضيق السبل والوسائل وقلة المال والغذاء والمرعى .

وكان رؤساء القبيلة هم زعماء السياسة فيها يعقدون المعاهدات ويعلنون الحروب ، ويجتمعون إذا ادّهم الخطبُ ، ويهدون جميعاً للقتال ، وكان الكاهنُ موضعَ الاستشارة والعون ينزعون إليه ليسألوه رأيه في كثير مما يغمض عليهم . وكان الشاعر لسان هذه الدولة وصحيفتها السيارة وقلمها البليغ تحتفل لولادة الشاعرية عنده ، وتفرح لقوّته ، وتفخر به كذلك ، لأنه درع من الدروع وحصن من الحصون يقاتل ويحارب بلسانه كما يحارب القوم بسيفوفهم ورماحهم . وكانت قوة السياسة عند الشاعر خلال الأزمات تقع في شدة حفظه للأنسب والأحساب ، لأنه يصرف لسانه فيها فيتناول عدوّه ، وينزل به أشد النكبات كلما توسع في هذه المعلومات وقلب قوله فيها . لذلك كان الشاعر لسان السياسة في القبيلة ، ثم أصبح لسان السياسة في الدولة . ولم يقع لنا من شعر الهجاء السياسي كبير أمر خلال الجاهلية في بلاد الشام ، إلا ما تسرب إلينا من هجاء المتلمس في المناذرة وما كان من الأعشى ضدّ الفرس وكسرى ، ولكنه حماسة وفخر قد مزجا بالهجاء .

ولا شك في أن سائر هذا الهجاء القبلي قبل الإسلام كان يعتمد على التاريخ فيرجع إلى ماضى كل قبيلة ليغيرها بمخازيها ويكسوها العار الذى يريد . وأيام العرب كثيرة لا سبيل إلى إحصائها قامت من أجلها قصائد ومطولات ، تعتمد على الغضب والحقد والنفور والعداوة ، فتعد الانتصارات وترسم الانكسارات وهذا كله أدخل في الفخر والحماسة ، لأنه يذكر أيام النصر والظفر فيفتخر بها ، ويتندر ويتوعد ، ويذكر الهزائم فيغير بها . وأكثر هذا الشعر نثر يصور مقاومة الطغيان ويستند إلى القوة ويصف البطش والدماء والقتلى ، ويأسف لوقوع ذلك ، ويرسم الموت الخيم على المعارك ، وقد يدعو إلى ترك ذلك ليلوذ القوم بالصلح والهدنة . وكان ذلك كله يدور حول المكارم العربية والأخلاق الرفيعة فيقول شاعرهم الخطيئة في هجاء بنى عبدان :

لم نطأكم يوماً بظلم ولم نهـ      تمك حجاباً ولم نحلّ حراماً  
يا بنى منذر بن عبدان والبط      نه يوماً قد تأفن الأحلاماً (١)  
لم أمرئهم عبداً ليهجو قوماً      ظالمهم من غير جرم كراماً

وهذا الشاعر على بداءة لسانه وقدرته في الهجاء لم يصنع شيئاً في قوله هنا ، وإنما كان معاتباً ومفاخرأ ، يدعو إلى الحلم والعقل والتبصر والبعد عن الظلم .

فلما جاء الإسلام سعى سعياً حثيثاً لإبطال العصبية وإسكات هذه الحروب القبلية ، وإماتة هذه المفاخر إلا في نصره الدين الجديد ، فكان يدفع القوم إلى الإيمان بهذا المفهوم الجديد كوطنية جديدة ، تجعل من المؤمنين مواطنين ومن دينهم وطناً جديداً ، لعلهم يندفعون معاً ضد المشركين الذين يريدون أن يهدموا حدود هذا الوطن الدينى الناشئ ، فدعاهم إلى التضحية وإلى التناصر وإلى الاشتراكية الفعلية من وحدة في العبادة ، ووحدة في المعاملات ، وفرض الصيام والزكاة والصلاة والحج ، وأبطل ما عداها من أمور الجاهلية .

وهنا كان على المسلمين أن يقفوا في صف وعلى المشركين أن يقفوا في صف آخر ، فنشأ حزب وحزب — كما قلنا — واستولى الحزب الجديد على الأمر ،

(١) تأفن الأحلام : تذهب بها وتضعفها — رجل مأفون : ضعيف العقل .

ووجد النفوس والجيوش تحت علم واحد ، وكان إليه الأمر والسلطان في المملكة الجديدة الإسلامية الصغيرة ، ونهض الحزب القديم يجمع شتاته ليستعيد ما كان له من نفوذ وما كانت له من امتيازات وعادات أبطلها سادة الحزب الجديد . وقامت المنافسة بين الحزبين فكان هجاء أشبه بالهجاء القبلي ولكنه انصب على المبادئ الإسلامية الجديدة ، وذكر جنة وذكر ناراً ، مما استمده من تعاليم القرآن الكريم .

ولم تسلم المملكة الجديدة من اضطراب وتنازع في الأمصار ، فقد اتسعت الرقعة على قوم ناشئين في الحكم ، ليست لهم ممارسة قديمة في الإدارة ، ونشأت أحزاب في هذه الأمصار لكل منها زعيم كبير لا يقل شأنًا عن زميله في قرابة الرسول أو صحبته وأصالة العشيرة وقوة النسب والمفاخر ، وهنا دبّ الهجاء ولكنه قام على العصبية الجاهلية كذلك ، كلّ ينتسب إلى أهله القدماء في الجزيرة ويعدّد مفاخره العربية القديمة . وظهر هذا الهجاء السياسي في شكل جديد ، ينزع بعض الشعراء إلى نصره الخلافة ويهاجمون المنشقين ، وينزع آخرون ضد هذه الخلافة نفسها ويهاجمونها ، فكانت حكومة وكانت معارضة ، كما نقول اليوم ، وكان خارجون على الحكم ومناصرون لهذا الحكم .

وسعى رسول الله في تكوين دولة جديدة على الإيمان سلاحها الجهاد والإخاء ، وتبعه أبو بكر وعمر فامتدت الدولة الإسلامية لعهدهما وسكنت لحزمهما ، وتعثرت في عهد عثمان ، فعادت العصبية القبيلة إلى الظهور ، وتحولت إلى عصبية إقليمية فأصبح في الشام حزب معاوية وفي العراق حزب عليّ . ونشأت الشيعة ، وقامت فئة نزارية وفئة قحطانية ، وكان مع معاوية اليمنية ومع عليّ النزارية ، وظهر الخوارج ، ونهضت فتن وثورات ، ورافق ذلك كله شعر في الفخر والهجاء ولكنه كان أقرب إلى الشعر البدوي في الحماسة وفي تعداد المثالب والمعائب ، يضاف إليه الاعتزاز بالإقليم من شام أو عراق .

وعرف معاوية كيف يتألف القلوب ، ويبدل المال ، ويقرّب الشعراء ، وبابح لابنه يزيد بولاية العهد ، فسار على سياسة الوراثة في الحكم ، وحرّض شعراء على المعارضين ، ودعاهم بالإغراء إلى أن يكونوا شعراء رسميين كصحافة

الحكومة في الممالك المعاصرة فقالوا في نصبرته وفي هجاء خصومه ، فاستفحل الهجاء السياسي وأصبح هؤلاء الشعراء يجتمعون فينشدون أهاجيهم . وكان فيها سباب وشتائم ، ويذكرون فيها ما ذكر الجاهليون ، ويعلقون بهذه الأسباب ويهجمون عليها ، حتى قيل لم يبق شاعر إلا وكان له في الهجاء نصيب<sup>(١)</sup> . وقامت النقائض بين جرير والفرزدق ، وكان لكل منهما حلقة ومكان . وفي المربد أنشد جرير قوله المشهور :

ففض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلاباً

فنكس الفرزدق رأسه . وفي هذا المكان تهاجى النابغة الجعدي وأوس ، وشارك الأخطل وكعب بن جعيل والعجاج<sup>(٢)</sup> ، وكان منهم ما كان من زملائهم في الجاهلية ، إلى تمثل بالآيات من القرآن الكريم واعتماد على ذكر الدين الجديدي ونصبرته أو خذلانه واستعارة مبادئه وتعاليمه .

وانصرف بعض المهجائين إلى تناول الحكام ونقدهم ، فرماهم بالبعد عن الدعوة وفي خروجهم على الشرع ، وقد هجا عتبة الأسدي « معاوية » وأتهمه بالشرة في جمع المال وإفساد الناس فقال :

معاوى إننا بشر فأسجج <sup>(٣)</sup>	فلسنا بالجبال ولا الحديد
أكلتم أرضنا وجددتمونا	فهل من قائم أو من حصيد
فهيئنا أمة هلكت ضياعاً	« يزيد » أميرها و « أبو يزيد »
أنتطمع بالخلود إذا هلكنا	وليس لنا ولا لك من خلود
ذرؤا حول الخلافة واستقيموا	وتأمين الأراذل والعبيد

وهذه صيحة ما كان يرددها العرب في المطالبة السياسية بالحقوق والتساوي ، والبعد عن تقريب الأراذل والعبيد ، ولكنها منبثقة من خلق العربي على كل حال

(١) انظر « الهجاء والهجاءون في الجاهلية وصدر الإسلام » تأليف الدكتور محمد حسين ، وهو كتاب جميل في هذا الباب يفي بحق الفن ويتوسع فيه .

(٢) الأغاني ١٢/٥ .

(٣) سجج : سهل ولان .

فهو لا يرتضى الذلّ والانقياد والضياع . وقد أثار بعضُ الشعراء قضايا الأمة وما آلت إليه من فتن وحال الحكام وما كانوا عليه من تهالك على الدنيا ، وتكالب على الجشع والمال وتمسك بالغرور والرياء والخداع ، واعتماد على الوعود والأقوال .

ولما ظهر الخوارج ، وقامت الشيعة ، ونشأت الأحزاب ، قال الشعراء في حق الخلافة ووراثتها ، فكان الكميّة أشدهم وطأة في ذلك حين يذم سياسة بنى أمية فيقول في آل البيت :

ساسةٌ لا كمنٌ يرعى الذئب أس سواه ورعية الأنعام  
لا كعبد المليك أو كوليّد أو سليمان بعدد أو كهشام

فهو لا يرى للأمويين سياسة حسنة مع الرعية وإنما يرى أن من يحسنها هم الشيعة وآل البيت . ويقول في ردّ حججهم :

وقالوا ورثناها أباناً وأمناء وما ورثتهم ذاك أم ولا أب  
يروّن لهم حقاً على الناس واجباً سفاهاً وحقّ الهاشمين أوجب  
ولكنّ مواريث ابن آمنة الذي به دان شرقى لكم ومغرب<sup>(١)</sup>

فيردّ حججهم في الوراثة ، وينفي حقهم فيها ، ويجد أنهم سلبوها سفاهاً وأن أحق الناس بها هم الهاشميون لأنهم من أصلاب ابن آمنة محمد — صلوات الله عليه — ، فبه دان لهم المشرق والمغرب ، ثم يعدّد مفاخر آلهم في بدر وغيرها من الغزوات والانتصارات . ولم يكن يستطيع أن يقول هذا في جرأة وقوة من غير أن يتحمل وزر ذلك ، فقد كان الأمويون حرباً عليه ، وصف موقفهم منه بقوله :

ألم ترّني من حبّ آل محمد أروح وأغدو خائفاً أترقب  
كأنّي جان محدث وكأنا بهم اتقى من خشية العار أجرب<sup>(٢)</sup>

(١) مواريث : ج ميراث ، وابن آمنة : النبي (صلم) .

(٢) جان : من الجنّاية ، وفي رواية : « من خشية العار أجرب » .

فهو خائف يروح ويغدو كأنه جان قد أحدث ذنباً أو بدعة ، فاجتنب وأقصى كأنه أجرب كما يتقى البعير ، وهو في ذلك كله كالجاهليين بل إنه ليصارحنا بذلك فيقول : « وأفعال أهل الجاهلية نفعل » . ثم هو يناقشهم الحساب على ما يصنعون فيقول :

أأهل كتاب نحن فيه وأنتمُ على الحق نقضى بالكتاب ونعدل فكيف ومن أنى وإذ نحن خلفه فريقان شتى تسمنون ونهزل

ويبين بذلك ظلم الأمويين لآل البيت ومعاملتهم معاملة شاذة فهم يسمنون والهاشميون يهزلون فقراً وجوعاً وحرماناً ، وهذا دليل على الشكوى من السياسة القائمة آنذاك . وأبو الأسود الدؤلى يظهر حبه كذلك لآل البيت ويعنى حرمانهم من الخلافة ، وكثير عزة دخل في هذا وشارك فيه ، والخطيئة سخر من هذه الوراثة فقال :

أطعنا رسول الله ما كان بيننا فيا لعباد الله ما لأبى بكر أيورها بكرة إذا مات بعده وتلك لعمر الله قاصمة الظهر فقد رضى بالرسول . ولكنه لم ير للوراثة سبباً . فلن تكون لأبى بكر بعده ولن تكون لعمر بعدهما . وزاد عبد الله بن همام السلوكى فى السخرية من هذه الوراثة فقال :

فإن تأتوا برملة أو بهند نبايعها أميرة مؤمنينا  
إذا ما مات كسرى قام كسرى نعد ثلاثة متناسقين

فجعل حق الوراثة للنساء والرجال إذا قبل المسلمون هذا المبدأ وفى ذلك تقليد للأكاسرة وخروج عن الشرع ، وأعجمية فى الطريقة . وفعل الخوارج مثل هذا ودافعوا عن مبدئهم وهاجموا غيرهم . فقال شاعرهم :

كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ولكن الخوارج مؤمنونا  
هم الفئة القليلة غير شك على الفئة الكثيرة ينصرون

فزجوا بالفخر بالذم . وخرجوا من ذلك مبرئين . ونزع الشيعة إلى المطالبة بحقوقهم وذموا الذين سلبوها منهم ولكنهم قالوا شعرهم فى قالب أقرب إلى الرثاء



والأسف والتظلم . وقام الزبيريون يصنعون في قصائدهم ما صنع هؤلاء سواء بسواء .

وهكذا رأينا أن هجاء الشيعة امتزج بالبكاء والحزن . وأن شعر الخوارج ضجّ بالحماسة والفداء . وهؤلاء وهؤلاء ينكرون كثرة القتل والظلم ، ويدعون إلى الزهد والإخلاص للمبادئ ، ويحاربون الرياء والنفاق ، ويهاجمون الإنفاق بغير عدل والإغداق بغير رحمة والتظاهر في تقليد الأكاسرة والأباطرة ، فقال يحيى بن نوفل الحميري في سعيد بن راشد وقد ارتقى إلى الإمارة :

فواعجبا حتى سعيد بن راشد له حاجب في الباب من دون حاجب  
ويبدو أن الحنين إلى عيش الجاهلية والتقصيف الذي كانوا فيه ، دفع الشعراء إلى استعادة ذلك الماضي اللامع ، والتفرز من هذا الحاضر المزى حيث اندفع الخلفاء والولاة والقواد إلى ميادين جديدة في البذخ والترف . والسكوت عن الرشوة والظلم ، والركون إلى العمال الجاهلاء الجبناء ، والعودة عن معاقبة الجناة المتعسفين فيقول الفرزدق شاكياً إلى الوليد بن عبد الملك :

أمر المؤمنين وأنت تشفى	بعدل يديك أدواء الصدور
فكيف بعامل يسعى علينا	يكلفنا الدراهم في البدور <sup>(١)</sup>
وأنى بالدراهم وهى منا	كرافع راحتيه إلى العبور <sup>(٢)</sup>
إذا سقنا الفرائض لم يردها	وصدّ عن الشويهة والبعر
إذا وضع السياط لنا نهرا	أخذنا بالربا سرق الحرير <sup>(٣)</sup>
فأدخلنا جهنم ما أخذنا	من الأرباء من دون الظهور

فهو يحيى كل شهر حتى لم يبق عند الناس مال ، ويصدّ عن القليل في شويهة أو بعير ، ويجلد من لا يذعن لأمره فيأخذهم بالربا . ويدخلهم جهنم بسببه ، ولكنهم أطاعوا خوفاً على ظهورهم من السياط . ويقول الأخطل في هجاء تميم العامري ورهطه بنى العجلان :

(١) البدور : في كل بدر ، أى كل شهر .

(٢) العبور : مطالعة البروج .

(٣) سرق : الشقة من الحرير .

إذا التمس الأقوام في الناس ذكرهم فذكرُ بني العجلان من أقبح الذكر  
وقد غبر العجلانُ حيناً إذا بكى على الزاد ألقته الوليدة . في الكسر  
فيصُبح كالحفاش يدلكُ عينه فقبح من وجه لثيم ومن حجر

فجعل للقوم صورة ساخرة فنية . ووصفهم بأنهم ألام الناس ، يبخلون  
على أبنائهم بالزاد حتى يقتلهم الجوع . فيبكون ويدلكون أعينهم بأيديهم ،  
وتمل الوليدة صياحهم فتلقى بهم في زاوية البيت . وصورة البخل معروفة في  
الجاهلية لكنها هنا أقدر وأقوى حين تروى جوع القبيلة وفقرها ورثاة النساء  
والبسطن الزرية الوسخة وذلك ليصور قلة خطرها في الناس وعودها بين القبائل  
مقعد الفقير البائس المحتاج ، وهو من أقذع الهجاء . . .

وبمثل هذه الصور كان الأخطل يرى خصوم الأمويين فيحطّ من  
قدرهم ، ويسير سوءاتهم بين الأقوام ، فاعترف له الخلفاء بذلك ، وقربوه  
بحرأته وبذاءة لسانه ، وخاصة حين يصف الأعداء بالخفافس ويتهممهم بالفحش  
والزنى وضالة الأنساب . في ألفاظ بدوية خشنة وصور جاهلية ساخرة . وهو  
إلى ذلك يقرّر حق الأمويين في الخلافة ، ويطالب بدم عثمان فيدخل من  
باب السياسة الواسع .

وأما جرير فكان ساخراً يهجم على الأقوام بصور مضحكة فيعتمد على  
النكتة في هجائه ، ويقول في بني التيم :

يا تيم إن وجوهكم - فتقنوا - طبعتْ بآلام خاتم وكتساب  
قوم إذا حضر الملوك وفودهم نُتِفَتْ شواربهم على الأبواب  
فهو يحقرهم ويصور ذلهم وخضوعهم واستكانتهم ، وتضرعهم على أبواب  
الملوك فلا يصلحون لجد ، ولا يقفون لعز ، لأنهم الأذلة المستضعفون .  
ودخل الخوارج في هذا الباب كذلك فأدلوهم بدلوهم وفخروا وهجوا ،  
ولكنهم وقعوا في أساليب الجاهلية . أما الكميت في هاشمياته فقد صarach  
سياسته نحو الخلافة فقال :

أهوى علياً أمير المؤمنين ولا أرضى بشتم أبي بكر ولا عمرا

ولا أقول وإن لم يعطيا فذكراً بنت الرسول ولا ميراثه كفراً  
الله يعلمُ ماذا يأتيان به يوم القيامة من عذر إذا اعتذرا

فهو على مذهب عليّ في السياسة لا يدين للقائمين بالحكم ولا يرى رأيهم فيما هم فيه من التنكيل بآل علي . وقد ازداد هذا الشعور في نصرّة العلويين حين قامت الدولة العباسية ، فاستيقظ العلويين ينادون بخلافتهم ، وقد ضاعت آمالهم ونخابت مساعيهم ، فيسوا من العباسيين كما يسوا من الأمويين ، وذهب شعراؤهم في الدعوة سرّاً لآل عليّ ، وأخفوا أصواتهم أول الأمر حين كانت الخلافة على حرب مع الروم خارجية وحرب ضد الأحزاب داخلية فانصرفوا مع الشعراء إلى هجاء الأعداء ، ذلك لأنه نشأت حالة جديدة كحال الدول العظمى لعصرنا ، وقامت حروب بين الدولة الإسلامية والدولة البيزنطية ، وأصبح الهجاء السياسي بمفهومه الواسع ، في البقاء أو الفناء — كما يقول دعاة الحروب اليوم — ولكن الشعراء ظلوا على أساليبهم القديمة في الفخر والحماسة والتنكيل بالأعداء ، وعاجوا ينظرون إلى الأمر من ناحية الإسلام والكفر كما كان الإسلاميون ينظرون إلى الحروب الأولى للنبي ، كذلك كان أبو تمام في فتح عمورية ، يرسم للروم صورة ساخرة هاجية ، وإنما افتخر وتحمس ، وكتب في غلبة الدين ونصرة الأسود من المسلمين ورسم ما فعله الجيش الإسلامي فقال :

لم تشرق الشمس منهم يومذاك على بان بأهل ولم تغرب\* على عزب  
والمتنبى يلثم الروم ويرسم أنهبهم أمام سيف الدولة ، يحرون الحديد في جيوش طويلة ، ولكنهم كلمى وجرحى قد انتشرت أشلاؤهم في كل واد وجبل ، وقتل أمراؤهم وماوكهم . فراحوا في الجحور يختبئون من السيوف ويهربون من الموت .

وأبو فراس الحمداني ذاق من الروم ما ذاق ، فلم يخف بأسهم وشدتهم ، فافتخر وتطرق إلى هجائهم حين قدموا عليه يناقشون في الدين ويفتخرون بالشجاعة فقال فيهم صورة تضحك وتسلي :

أما من\* أعجب الأشياء علج يعرفني الحلال من الحرام

وتكنفه بطارقة تيوس      تبارى بالعشائين الضخام  
لحم خلق الحمير فلست تلقى      فقى منهم يسير بلا حزام  
أناجى كل طبل هرثمى      عريض الذقن بصاق الكلام

فهو يعجب للعلوج كيف يقفون لنقاش المسلمين ، وفيهم البطارقة على  
لحى طويلة رأى فيها شبح التيوس ، وعلى ألبسة ذات أحزمة تصور فيها خلق  
الحمير ، وأضحكته الذقون والكلام يتطاير من خلالها إذا ما تحدثت القوم .  
وهو متشيع لآل البيت يهاجم العباسيين فيعدد معايهم ومثالبهم فى صراحة وقوة ،  
ويوازن بينهم وبين آل البيت . ثم يهجوهم بقوله :

يا باعة الخمر كفّوا عن مفاخركم      عن فتية بيعهم يوم الهياج دم  
تبدو التلاوة من أبياتهم سحراً      وفى بيوتكم الأوتار والنغم  
ما فى ديارهم للخمر معتصر      ولا بيوتهم للسوء معتصم  
ولا تبيت لهم خنى تنادمهم      ولا يرى لهم قرد له حشم

فجعلهم كباعة الخمر الخجوس . ورسهم عاكفين على الغناء والعزف  
يشربون الخمر ويعتصرونه وبيوتهم أوكار للسوء ومعتصم للخبائث . تنادهم  
خنى وتحكمهم امرأة وقرد وخادمة . وهذا من أبلغ الهجاء الذى رُمى به  
العباسيون . ولطخ به تاريخهم السياسى . ولكنه على ذلك كله يعتمد على الفخر  
والذم فلا يصور صورة ساخرة مضحكة . وإنما يرميهم بالكفر والحناء والإلحاد  
والخروج عن الدين والبعد عن الشرع ، فهو فى ذلك كأجداده من الشعراء  
الإسلاميين والأمويين . ومثله الصنوبرى فى ديوانه الكبير المخطوط وكشاجم ،  
والسرى الرفاء ، وكلهم تناولوا العباسيين بفخر وذم ، فلم يخرجوا بهجاء فى  
سياسى .

ويبدو أن شعراء العرب قد فهموا الهجاء السياسى على أنه حماسة ،  
وفخر . وهجوم . لم يصوروا فيه أعداءهم ومذاهبهم ، ولم يقدعوا فى ذلك  
إقذاعهم فى الأعراض والأنساب وبيان المثالب والمعايب ، ورسم الخلال  
الذميمة كالجبن والبخل والبشاعة . فقد هجم عليهم التتار والمغول والصليبيون

والفرنجة في العصور الماضية ، وفد إليهم وباء الاستعمار أخيراً ، فقاموا لذلك كله بحماسة عربية ، وندبوا الماضي الجليل ، واستحثوا الهمم ، وبكوا لما حلّ بهم من نكبات فادحة كخروجهم من الأندلس ، وضياع أراضيهم في المغرب والمشرق ، ولكنهم لم يصنعوا هذا الهجاء بمفهومه السياسي الدقيق . وإذا قلبت كتب المتأخرين ودواوينهم وجدت الشعراء قد رسموا للغرب صورة قاتمة ولكنهم لم يبلغوا من القوم بحيث حطوا من تاريخهم وأنسابهم وحضاراتهم وصورهم ، وإنما وقفوا منهم مشدوهين لحضارتهم ، فاستحلفوهم بمبادئ الإنسانية والمثل العليا أن يكفوا عن الظلم والعدوان . كذلك كان حافظ حين أعجب بالإنكليز ولكنه رأى لحال المصريين وظلم الاستعمار وندد بأخلاق قومه فهجا مصر وردد قول المتنبي : « وكم ذا بمصر من المضحكات » ، وحين عرض لدنشواي طلب من الغاصبين الظالمين أن يترفقوا فهم من شعب كبير يحكم الأرض ، وقال :

أحسنوا القتل إن ضمنتهم بعفو أقصاصاً أردتهم أم كيادا

وشوق ذم الفرنسيين في الشام والطيالان في طرابلس الغرب ، ولكنه تحمس وبكى ، واستكبر الفواجع ورثى ، ومال إلى الشرقيين والعرب فدعاهم إلى الوحدة والإخاء والوقوف في وجه الأعداء .

وفي المعاصرين من تناول الغربيين في شعر قريب من شعر حافظ وشوق لهذا الباب ، ولكنه زاد فرمى الأمم المستعمرة بالعنت والظلم والاستبداد وإخفار الذم ، وفي هذا يقول عادل الغضبان :

أَوْ كَلِمَا جَنِّ الْبَغَاةُ جَنُونَهُمْ	مَطَرُوا الْعِبَادَ الْوَادِعِينَ وَبَالَا
وَرَمَوْهُمْ بِالْمَهْلِكَاتِ وَمَزَقُوا	أَوْصَالَهُمْ وَتَقَاسَمُوا الْأَوْصَالَ
إِنْ عَاهَدُوا نَقَضُوا وَإِنْ هَمَّ وَاعَدُوا	نَكثُوا الْوَعْدَ وَزَيَّفُوا الْأَقْوَالَ
الْحَقُّ بِاسْمِ الْحَقِّ يَهْتَضَمُونَهُ	وَالزُّورُ بِاسْمِ السَّيْفِ سَادَ وَطَالَ
الْحَرُّ يَحْلُمُ فِي الْأَذَاةِ فَإِنْ يَثُرُ	يَقْرِ الْحَدِيدَ وَيَحْطُمُ الْأَغْلَالَ

ومنها من تشفى منها لمصائبها فقال الأخطل الصغير للدول الغربية :

قرعَ (الدوتشي) لكم ظهر العصا وتحدّاكم حساماً ولساناً  
إنه كفءٌ لكم فانتقموا ودعونا نسألُ الله الأماناً

فشمت من هذه الأمم حين دخل ديارها الإيطاليون وعملوا فيها الأفاعيل ،  
ثم أظهر أن العرب لا يستطيعون أمراً حيالهم فليتركوهم وشأنهم .

وقال عمر أبو ريشة في مثل هذا المعنى قصيدة طويلة نجتزئ منها هذا البيت  
فهو يدل على تشابه الفكرة عند الشعاعين .:

رَحِمَ الله هتلراً يا فرنسا كنتِ أشهى حسانه وقيانه  
ولكنه تناول الموضوع في فكرة جاهلية تمس العرض ، وتصيب منه مقتلاً ،  
فهو يشمت كزميله بما وقع للقوم خلال الحرب .

وفي السنين الأخيرة تناول شعراؤنا في شعرهم شذاذ الآفاق في فلسطين بهجاء  
ساخر ، وسبوا من يطمعهم في بناء وطنهم المستعار على الألفاظ الكاذبة والوعود  
البراقة . ولكن هذا كله لم يبلغ مرحلة الشعر السياسي الفنى ، فلم يسخر من  
عظمة الإنكليز وحرية الفرنسيين وبطولة الطليان ، ولم يهزأ بما وقع لهم في  
تاريخهم الماضى والحاضر من صغار وذلة وهوان ، ولم يضحك لدعواهم حماية  
الشعوب الضعيفة ، ورعاية الأمم الإسلامية والتظاهر بحبها والعطف عليها ،  
والتفانى في خدمتها إلى حدّ رغبتها في سكنى هذه الأقطار وتمدينها بالقتل والنفي  
والسلب . . . وكلّ ما كان من هذا الهجاء السياسى أنه استصرخ الضمائر  
ووصف الصغائر ودعا إلى التأخى والعمل والوحدة ، مما نجد آثاره في سبيل  
التنفيذ والعمل ، ولكنه أدخل في باب الحماسة والفخر والأدب والنصح .

## الفصل الخامس

### الهجاء الدينى

المشركون والمسلمون - الهجاء فى القرآن - حسان

ابن ثابت - تهكم الأخطل - شك المعرى

ظهرت الأديان قبل الإسلام فى الجزيرة . وتنوعت مذاهب العبادة فيها ، ولكنها لم تكن تثير بين أصحابها كثيراً من المشاحنات فلم يكن ثمة حرب فى سبيل العقيدة كما يبدو ، وإنما كانت أكثر الحروب فى سبيل العيش والاقتصاد . ذلك لأن العربى كان يعيش حرّاً غير مقيد بمعبد أو عقيدة . فقد يصبح على أمر ويمسى على أمر فى غالب الأحيان . لذلك لم يصل إلينا هجاء دينى خلال حقبة طويلة من أيامهم .

فلما كان الدين الجديد وقف العرب حيارى أول الأمر . لأنهم حريصون أشد الحرص على حريتهم ، بعيدون عن التقيد بهذا النظام الذى يريد أن يأخذهم بأمور لم يعهدها . فلما تفهم كثير منهم ما للدين الإسلامى من عقائد وفوائد . وعرفوا بعض غاياته ومبادئه ، وما يريد أن يبلغ بهم إلى جامعة كبيرة ووحدة عظيمة تنهض بهم من شقاق وخلاف وتناحر إلى أخوة واتفاق وتآلف . وأدركوا أن استعباد الفرس والروم كان بسبب بعدهم عن رابطة تربطهم وإلفة تلم شعهم - دخلوا فى الدين وآمنوا به . وكان أن انقسموا إلى حزبين كبيرين مسلم ومشرک ، وتعصّب كل فريق لحزبه تعصّبهم للقبيلة أو أشدّ ووقع بينهم ما يقع بين الأحزاب فى الدنيا من تنافر وتسابق وتنافس . وأخذ النبى يدفع أعوانه ويدعو شعراء إلى الدخول فى هذه الحرب الكلامية الجديدة انتصاراً للمثل العليا ودفاعاً عن المبادئ السامية . فاجتمع حوله رجال وقفوا معه حتى النهاية . وفيهم الشعراء . ينضوون تحت لواء القائد والزعيم والحكيم المثالى والرسول العاقل .

وقد جمع الفريق الآخر شتاته ، ودفع شعراءه كذلك فوق حجاج وكلام

ونقاش وقصائد في الهجاء، فتلاحم القتال فقال حسان بن ثابت يصف الحال :  
لنا في كل يوم من معدّ سباب أو قتال أو هجاء  
فنحكم بالقوافي من هجانا ونضرب حين تختلط الدماء  
ذلك لأن هؤلاء الشعراء كانوا يحمون أعراض المسلمين من هجوم خصومهم  
باللسان ؛ وإخوانهم يحمونهم باللسان ، فكأنها معركة سياسية دينية ، تؤثر في  
النصر النهائي ، وتصنع في المحاربين كما تصنع السيوف سواء بسواء ، بل لأنها  
كصحافة العصر ودعايته تحمل من أعباء القتال ما تحمل الجيوش المحاربة . وقد  
أسرف المشركون في التحريض على النبي وأعدائه حتى أهدر النبي دم بعض  
الهجائين منهم ، دفعاً للعنف وحماية من الفضيحة .

وهذا الهجاء الديني سار في أسلوبه على سبيل الجاهلية وشعرها ، فاعتمد  
على الأنساب والقبلية ، وحماية الجار والدفع إلى الثأر ، وضم الجبن ، والعورات  
والمثالب ، وأضاف إلى ذلك ما قام في الدين الجديد من تعبير بالشرك ، ومخالفة  
الله ، وعبادة الأوثان ، والتهديد والوعيد بنار جهنم والعذاب فيها . فاستفاد من  
القرآن الكريم ، وأخذ من معانيه وآياته في هذا الباب ، فقد سبق القرآن إلى  
هذه الحرب وهذا الوعيد فكان المعلم العظيم في الهجاء الديني ، تناول المشركين  
والكفار فأصلاهم ناراً حامية وصب عليهم سوط عذاب ، فألذّهم وهددهم  
وتوعدهم ، فقال في أبي لب و امرأته حمالة الحطب ووصف حبليها بأنه من مسد .  
وهنجا الشعراء المشركين فجعلهم في كل واد يهيمون ، يقولون ما لا يفعلون .  
ووصف المنافقين بالكذب ، وندد بسوء أعمالهم ، وأنهم مرضى القلوب وأن لهم  
عذاباً أليماً ، فهم السفهاء الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم  
وما كانوا مهتدين ، وهدّتهم بالجنود يأتونهم من فوقهم ومن تحتهم ، وقد زاغت  
الأبصار وبلغت القلوب الحناجر فلا عاصم لهم من أمر الله<sup>(١)</sup> .

وهجا اليهود ، وجعل لهم الخزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردّون إلى أشدّ  
العذاب ، ولعنهم بكفرهم ، وبأوا بغضب على غضب . وذكرهم بما كان منهم  
نحو الأنبياء المرسلين ، وألذّهم بسوء المصير ، ذلك لأنهم اتبعوا ما تتلو

( ١ ) انظر نصوص الآيات في كتاب الجاهلية وصدر الإسلام ، لمحمد حسين ، طبعة القاهرة .



الشياطين على ملك سليمان . ورسم لهم صورة بارعة عظيمة فقال تبارك اسمه : « قل هل أنبئكم بشرّ من ذلك مثوبة<sup>(١)</sup> عند الله ؟ - مَنْ لعنه الله وغضب عليه ، وجعل منهم القردة والخنازير ، وعبد الطاغوت<sup>(٢)</sup> أولئك شرّ مكاناً وأضلّ عن سواء السبيل » ، وقال تعالى : « وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ، كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ، ويسعون في الأرض فساداً ، والله لا يحب المفسدين<sup>(٣)</sup> » .

وأمثال هذه الآيات سلكت سبيلها إلى عقول الشعراء وخیالهم ، فأخذوا بصورها وتعلموا من منطقها والنقاش فيها ، واستعاروا تعابيرها ليكسوا خصومهم بالخرى والعار والسفه والضلال وليكشفوا عن الدسائس ، وليهتكوا الأستار ، وليصوروا حال أعدائهم كما صور القرآن ، وليعتمدوا على التهديد والوعيد ، كما هدد الكتاب المجيد ، فهم قد أفادوا في الهجاء بأن أضافوا التاريخ وأخذوا بالصور الكثيرة ، واستعملوا أسلوبه في الإنذار بيوم القيامة وما ينتظر الكفار من جحيم وعذاب /

والشاعر الذي يمثل الهجاء في هذا العصر هو حسان بن ثابت الأنصاري ، ولد بيثرب قبل مبعث النبي بنحو من أربعين عاماً ، ونشأ على الشعر واشتهر أمره ، ولم يدخل في القتال ولكنه كان - يُعْمِلُ لسانه في الهجاء وفنون الشعر الأخرى ، ورحل إلى الغساسنة متكسباً ، وقضى على شيطان بردى أجمل أيامه ، ودخل في الإسلام وقد قارب الخمسين أو الستين فيما يقولون ، فراح يدافع عن الدين الجديد ويدفع عنه الخصوم والأعداء بلسان جاهلي ومعان جاهلية ، فقد نشأ عليها وأسنّ ، لذلك كان يعالج الفخر والحماسة ، فيعدد الأيام والانتصارات كما كان يفعل الجاهليون من زملائه ، ولكنه أضاف إليها صوراً إسلامية زيّن بها شعره - كما قلنا - وكان هجاءه لأعداء النبي من قريش تعريضاً ولوماً وحطاً من قدرهم ، ينال من أحسابهم وأنسابهم ، ويصمهم ،

(١) المثوبة : هنا بمعنى العقوبة .

(٢) الطاغوت : كل رأس في الكفر .

(٣) سورة المائدة - ( ٦٠ ، ٦٤ ) .

بالجن والخوف . ويرسم انكسارهم ، فيوجعهم بأسلوب تغلب عليه البداوة ، على فحش غير قليل فيتناول أم معاوية مثلاً بما لا يحسن أن يذكر من أعضائها ، وينسب إليها الفاحشة والعهر . ويتناول عمرو بن العاص بشعر مقذع يعتدل في ختامه أنه لم يستطع أن يقول ما كان يريد أن يقول :

لولا النبي وقول الحق مغضبة لما تركت لكم أنثى ولا ذكرا

مع أنه لم يترك لهم شيئاً لم يصبه لسانه . وهو يقول في هجاء بني المغيرة :

هلا منعتم من الخزاة أمكم . عند الثنية من عمرو بن يحموم  
أسلمتموها فباتت غير طاهرة ماء الرجال على الفخذين كالوم<sup>(١)</sup>

فرى أمهم بالحناء وجعلها غير طاهرة ورسم منها ما لا يرسم معاصر للنبي ، ولكن الرسول الكزيم أباح له أن يفعل كما ذكرنا . فسار في سبيله القديمة ولم يبال بهتك الأعراض . فقال في هجاء قوم :

ذهبت قریش بالعلاء وأنتم تمشون مشى الموهسات الخرع<sup>(٢)</sup>  
أنتم بقية قوم لوط فاعلموا وإلى خنائكم يشار بإصبع

وبذلك لم يغادر قبيحة لم يلصقها بهم . ووضعهم موضع الزواني ثم جعلهم كقوم لوط ، يشار إلى خنائهم بالأصابع في أقوام العرب . وهذا إقذاع شديد وإمعان في الفحش قلما تقع على مثله في هجاء الأعراض مما أوردنا في غير هذا الفصل . ولكنه يصنع هذه الصور للانتقام المذهبي السياسي والتشنى من أعداء الدين الجديد . متخذاً طريقه إلى ذلك بالسخرية والتفنن في الهجاء والبراعة في ابتكار الإقذاع على صور مختلفة يستمد بعضها من القرآن وبعضها من ماضيه الأدبي . فيقول في رهط النجاشي الشاعر :

لا بأس بالقوم من طول ومن عظم جسم البغال وأحلام العصافير

(١) الموم : الشمع .

(٢) الخرع : المرأة التي تشفى لينا .

كأنكم خشبٌ جوفٌ أسافلُهُ مثقَّبٌ فيه أرواحُ الأعاصير<sup>(١)</sup>  
 ونحن نعرف أن القرآن الكريم وصف أقواماً كأنهم خشب مسندة كبار  
 الأجسام صغار الأحلام . ولكن هذا كله ليس فيه من أمر الدين شيء ،  
 وهو حين يتناول الدين الجديد وأعداءه يقول :

هجوّت محمدًا فأجبت عنه      وعند الله في ذاك الجزاء<sup>(٢)</sup>  
 أتهجوّه ولست له بكفء      فشركما لخيركما الفداء  
 هجوّت مباركاً برّاً حنيفاً      أمينَ الله شيمتهُ الوفاءُ  
 فنّ يهجو رسول الله منكم      ويمدحهُ وينصره سواء  
 فإن أبى والبدّةُ وعرضي      لعرض محمد منكم وقاء

وفي هذه الأبيات من المديح والحب للرسول الأعظم ما يجوز حدّ الوفاء  
 والإخلاص . بحيث يضع كل شيء فداء له . فيعدّ ما يملك العربي من  
 والد وولد وعرض وقاء للنبي . وهو حين يهجو أباً سفيان يصمه بما كان يصم  
 الجاهليون خصوصهم كذلك . فيجعله دعياً نيط في آل هاشم ، ويقول إنه  
 هجين ليس يورى له زند . ويرى المغيرة بن شعبه بأنه ترك الدين والإيمان  
 جهلاً . فهو يتبع في هجائه الديني ما كان يقوله الهجاءون قبله من صور قديمة  
 كما قلنا . ومثله كعب بن زهير حين افتخر ونافس وهجا غيره ، فلم يصنع شيئاً  
 كثيراً في الهجاء الديني .

هذا صدر الإسلام قد عجز بالحرب الكلامية فكان هجاء ديني بين  
 المشركين والمسلمين استعر أواره وحمى وطيسه فقال كل فريق يؤيد مذهبه على  
 طريقة الجاهلية كما رأينا . فلما كان العصر الأموي انصرف الهجاء إلى تأييد  
 المملك أو معارضته فكان هجاء سياسي تحدثنا فيه وبسطنا أمره في غير هذا  
 المكان . ولكن الأخطل رسم صوراً جريئة سخر فيها من شعائر الدين فقال:

ولست بصائم رمضان طوعاً      ولست بآكل لحم الأضاحي

(١) مثقّب : مخرق ، الأعاصير : ج إعصار وهو الرياح تثير الغبار .

(٢) الجزاء : المكافأة .

ولستُ بقائمُ أبداً أنادى كمثل العيرِ حى على الفلاح  
ولكنى سأشربها شمولاً وأسجد عند منبج الصباح

فنال من التعاليم الإسلامية ، وصورها تصويراً فيه زندقة وفيه خفه وطيش ؛ ولكنه كان من الخلافة بحيث لا تمسه يدُ القصاص ، ولا شك في أنه ساقها عن سبيل المحون كما ساق أبو نواس مثل ذلك عن سبيل الخلاعة والقصف . ومهما يكن من أمر ، فقد ظهرت الزندقة خلال العصر العباسي بعد ذلك ظهوراً عنيفاً وقام الإلحاد والشك عن سبيل المحون حيناً أو الجدل حيناً آخر ، ونهض الخلفاء لعقاب هؤلاء الشعراء فاشتد الهادى في طلبهم وقتل منهم جماعة . وقد قال أبو نواس :

يا ناظراً في الدين ما الأمر لا قدرُ صَح ولا جبرُ  
ما صَح عندى من جميع الذى تذكرُ إلا الموت والقبرُ

ولعل الذى أثار ذلك وشجعه شعوبية الفرس واندفاع المستهترين في قول ذلك وتقبله ، وذهابُ المحوس ، في حفظ ذلك وترديده ، مذهباً لا يدع الشك في حنينهم إلى دينهم الأول ، كما روى عن آل برمك وابن المقفع .

وقام أبو العلاء المعرى في القرن الخامس يتناول الدين ويصف المتدينين على أسلوب نادر وفلسفة غريبة ، دفعت القراء إلى الشك ، وتدفعنا إلى جعل أقواله في هذا الباب على أنها أصابت الإسلام بالنقد ، كما فعل أبو نواس سواء بسواء . ولكنه كان أعمق وأوسع وأشد إيلاماً ، فقال :

إذا رَجع الحَصيفُ إلى حِجَاهُ تهاونَ بالمذاهبِ وازدَرَاهَا  
وَهتُ أديانهم من كلِّ وَجِهٍ فهلُ عقلُ تشدُّ به عراها  
وهو يعمل العقل والحصافة ويتهاونُ بالمذاهبِ ويزدريها ، ويجدُّها واهية من كل وجه ، ثم يقول في وصف الأديان كلها :

عجبتُ لكسرى وأشياعه وغسل الوجوه ببؤل البقرِ  
وقول النصارى : إله يضامُ ويظلمُ حياً ولا ينتصرُ

وقول اليهود : إله يحب رشاش الدماء وريح القتر  
وقوم أتوا من أقاصي البلاد لرمى الجمار ولثم الحجر  
فواعجبا من مقالاتهم أيعمى عن الحق كل البشر

وهكذا تجده يرمى الأديان واحداً بعد واحد فلا يسلم من لسانه دين  
أو مذهب . ويناقشه مناقشة الشاعر المتعجل . إلى أن يصل إلى الدين  
الإسلامي فيعجب لرمي الجمار ولثم الحجر . ويجد في ذلك عى عن الحق وزيفاً  
عن الحجى . وهو يقسم العالم إلى قسمين فيقول :

هفت الخنيقة والنصارى ما اهدت ويهود حارت والجوس مضلله  
اثنان أهل الأرض ذو عقل بلا دين وآخر دين لا عقل له

فالنصارى والمسلمون في ضلال . واليهود حيارى والجوس تأهون والعاقل  
بلا دين والجاهل متدين ، وهذا هجاء للدين وهجاء للمتدينين . وهو إلى ذلك  
يصب أقواله في الله وفي صميم تعاليم الدين الإسلامى . فيقول :

يد بخمس مئين عسجداً وديت ما بالها قطعت في ربع دينار  
تناقض ما لنا إلا السكوت له وأن نعوذ بمولانا من النار

فيعترض على الأحكام . وينتقد الشرع : ثم يلوذ بالسكون والهمس خوفاً  
من النار وجزعاً من المسلمين . كأنه يريد أن يفهم سامعيه بأنه أعمل العقل  
فانتهى إلى هذا النقد ، ونحن ندخله في هذا الباب لأنه هجوم وسخرية في  
ظاهر القول .

وقد قام خلاف بين المذاهب الدينية والفرق . وسار نقاش وهجاء . ولكنه  
لم يصب الدين في جوهره . ونهض بعض الصوفية بشعر فيه غمغمة وشك ونقد ،  
أحاله المفكرون إلى شيء آخر غير الكفر والزندقة .

وفما عدا ذلك ، رأينا أن الهجاء الدينى بمفهوه الإسلامى الأول قد سكت  
خلال العصور حين آل الأمر إلى تعصب إسلامى فى الخلافة والحكم . وقد

عمّ الأرجاء حين هاجمت المسلمين فئاتٌ من الغرب تريد له كل شيء  
إلا ما أعلنت عنه باسم الدين . ووقع بين بعض المسلمين والنصارى مهاتراتٌ لم  
تصل إلى حد الهجاء الديني . وبذلك يكون هذا الفن قد بلغ ذروته في عصر  
النبي . وعاش بعده على ألسنة الشعراء في فترات متقطعة لم تفحش ولم تقذع .  
ولكنها لا تسمن كثيراً .

## الفصل السادس

### الهجاء الاجتماعي

« من طلب عيباً وجدّه »

سوء الحالة الاقتصادية — قلة الدين — ضعف الخليفة — هجاء  
الدهر — سقوط المرأة — ذم البلدان — هجاء الممالك والحكومات

رأينا أن العرب نشأوا في الجاهلية على أخلاق اجتماعية حافظوا عليها وتمسكوا بها ، وكانت لهم مثل "عليا مدحوا من" أخذ بها وذموا من" حاد عنها . وقد عرفنا أن الشجاعة والكرم وحماية الجار والأخذ بالثأر . والدود عن الحمى والحفاظ على العرض كانت صفات متوارثة مقدسة . وعرفنا كيف سعى الشعراء في هجائهم إلى التنقص من إحدى هذه الصفات في المهجو .

ولكنهم حين انتقلوا إلى الشام لم يضيعوا هذه المزايا لأنهم نُقلوا من أهلهم إلى أهل يعرفونهم . وكانوا يجدون عندهم القربى من قبل كأنهم ذوو رحم واحد . وتعلق خلفاؤهم على كثرتهم بإدارة الحكم وتسيير الفتوح فتمسكوا بالعروبة والإسلام كما استطاعوا أن يتمسكوا . وأغضوا عن أشياء تقتضيها سياستهم آنذاك ، لذلك كانت الحياة الاجتماعية على ترفها الحديد النسبي لا تستلزم الجزع والفرع ، لأنهم حملوا معهم هذه العادات القديمة وحنوا دائماً إلى الجزيرة وعيشها وأخلاقها ، فلم تظهر عادات تناقض ما ألفوه ، ولم يكن لشعرائهم أن يتناولوا الحياة الاجتماعية إلاّ بشيء من النقد واللوم قالوه في بعض الحكام ، حين مالوا نحو الترف في العيش ، وتقليد الروم والفرس في رسوم الخلافة ومراسم الولاية ، فأخذوا عليهم الرياء والنفاق والإنفاق والإغداق كما رأينا ، لكن ذلك كان في أشخاص يعدّون ويعدّدون .

ولما انتقل الحكم إلى بغداد ، طغت على العراق موجة الفرس الطارئين  
والساكنين فأخذ الحاكم بكثير من أخلاق المحكوم ، وتأثر بتقاليده وعاداته إلى  
حد ما أول الأمر ، وبرزت مسائل جديدة لم تكن من قبل ، بتعميق الإقليم وبعده  
عن جو الجزيرة العربية وتخوم الشام والحجاز ، ونشأت أخلاق اجتماعية أنكرها  
المحافظون والمتزمتون أول الأمر ، وكانوا كثرة فاستمع إليهم الخلفاء وأصاخوا  
السمع إلى تلبية ما يطلبون ، ولكن الزمان أضعف هذا الشعور ، وفقد الحنين  
في كثير من العرب إلى جزييتهم وإلى أخلاقها ، فانسابت جمهرة الشعب  
إلى هذا الشر الجديد ، وتبدلت الحياة الاجتماعية حتى لينكرها المؤرخ الدقيق  
أيما إنكار . فقام الصراع بين الموالى والعرب ونهضت الشعوبية ، وظهر الرقيق ،  
وفشا وجود الجوارى والعلمان ، وشاع الشراب ، وولدت الزندقة ، وغلبت  
الثقافة الفارسية ورسومها ، وانقلبت الأوضاع ، فعاش العربي في جو جديد  
تنكر له الشعراء المحافظون ونادوا بخطرته ، وأنكره العلماء المحافظون وشكوا أمره .  
ونشأ المهجاء الجديد للحياة الاجتماعية الجديدة .

وقد سمع الناس أشعار الموالى ومن إليهم ينادون بالتححرر ويجهرون بالسخرية ،  
لتحطيم القديم ووضع الجديد موضع التقديس ، فقال أبو نواس بإبطال العادات  
الموروثة من الوقوف على الديار وبكاء الدارس من البيوت ، ودعا إلى الشراب  
والخمر ، وصرح بذلك في شعره ، وقال بشار مثله ، وتبعهما الحبان والخلعاء ،  
حتى لقد كانوا يهيمون بقتل الروح العربية فقال نصر بن سيار في وصف الخطر  
الفارسي :

قدماً يدينون ديناً ما سمعتُ به      عن الرسول ولم تنزل به الكتبُ  
فمن يكن سائلاً عن أصل دينهم      فلن دينهم أن تقتل العربَ

وناهيك بهذه الصراحة دليلاً على ما آلت إليه الحال ، والوضع الذي وصل  
إليه جشع الشعوبية ، وهم إلى ذلك قد سخرؤا من العربي ورمزوا إليه بالشيخ  
والقيصوم والثمام ، ووصفوه بأنه يرعى الضأن ويشرك الكلب في ولغ ما حول  
البيت ، ومدحوا الانتساب إلى الفرس ، حتى قال قائلهم :



فلستُ بتارك إيوان كسرى      لتوضحَ أو لحوملَ فالدخول  
وضبَ في الفلا ساع وذئب      بها يعوى وليث وسط غيل  
فقد أصبحَ من الزراية في نظرهم ذكرُ الأماكن العربية والبطولة البدوية  
وعيش الفلا ، وغدا من الانحطاط ذكرُ الأنساب الهاشمية فقال شاعرهم :

بنى هاشم عودوا إلى نخلاتكم      فقد صار هذا التمر صاعاً بدرهم  
فإن قلمُ رهطُ النبي محمد      فإن النصارى رهطُ عيسى بن مريم

كل هذا ساق الشعراء العرب إلى هجاء الحياة التي وصل إليها الإسلام في  
العراق وغير العراق ، فنهضوا للردِّ على هذه الأباطيل والذود عن كرامة التاريخ  
العربي ، وأمجاد الأمة العربية ، والحنين إلى تلك الأخلاق القديمة حيث الإباء  
والشرف والعزة والكرم والسؤدد ، والبكاء على المساواة والعدالة . فأنشأ شعراؤهم  
يندبون الإخاء وألوفاء ، ويهجون المدن الكبيرة التي يعيش فيها الفقيرُ بائساً ،  
فقال شاعرهم في بغداد :

لو حلها قارونُ رب الغنى      أصبح ذا همٍّ ووسواس  
هى التي نعدُّ لكنها      عاجلةٌ للطاعم الكاسى  
حورٌ وولدانٌ ومن كلِّ ما      تطلبه فيها سوى الناس

فدم العيش فيها ، لكثرة البذخ والحاجة إلى المال ، ورأى أنها مكتظة  
بالولدان والخور ، وليس فيها ناس يعاش بقربهم ، وقال غيره في ذم بغداد  
وما آلت إليه :

أذمُّ بغدادَ والمقام بها      من بعد ما خيرة وتجريب  
يحتاج باغى المقام بينهم      إلى ثلاث من بعد ترتيب  
كنوز قارونَ أن تكون له      وعمر نوح وصبر أيوب

وذكروا الأسعار الجنونية التي وصلت إليها عاصمة الخلافة ، وهجوا  
ما بلغت إليه الحياة الاجتماعية فقال أبو العتاهية :

من مبلّغ عني الإمام  
 إني أرى الأسى  
 وأرى المكاسب نَزرة  
 وأرى غموم الدهر را  
 وأرى اليتامى والأرا  
 من بين راج لم يزل  
 يشكون مجهدة بأص  
 يرجون رفدك كي يروا  
 من يرتجى للناس غي  
 من مصيبات جوع  
 من يرتجى لدفاع كُر  
 من للبطون الجائعا  
 يا ابن الخلائف لا فقد  
 إن الأصول الطيبا  
 أقيت أخباراً إلي

م نصائحاً متواليه  
 يمار أسعار الرعية غاليه  
 وأرى الضرورة فاشيه  
 ثمة تمر وغاديه  
 مل في البيوت الخاليه  
 يسمو إليك ورأجيه  
 وات ضعاف عاليه  
 مما لقوه العافيه  
 رك للعيون الباكيه  
 تمسى وتصبح طاويه  
 ب ملمة هي ما هييه  
 ت وللجسوم العاريه  
 ت ولا عدمت العافيه  
 ت لها فروع زاكيه  
 اك من الرعية شافيه

كذلك كانت الحاضرة . وكذلك كانت الحياة الاجتماعية صورها الشاعر  
 في صورة لا تفرح الصديق ولا تزعج العدو . فكانت بارعة الرسم دقيقة التعابير  
 والملاحم . وذم العيش فيها حتى كره إلينا حبها ووفق في ذلك أعظم توفيق ،  
 فكأنه يصف حاضرة عربية ليومنا وقد سقطت فيها الحياة الاجتماعية سقوطاً  
 يحسه المعاصرون في كثير من أرجاء البلاد العربية ، ولكنهم يعجزون عن ذمها  
 وتصويرها كما فعل أبو العتاهية ؛ حين رثى للأسعار الغالية والضرورة الفاشية ،  
 واليتامى والأرامل والراجين والضعاف ، والمصيبات الجوع ، والكروب الملمة  
 والبطون الجائعة ، والأجسام العارية ، فقدم أخباراً شافية أشبه بما نسميه اليوم  
 بالترير الاقتصادي والوصف الاجتماعي لحياة بلد أو أمة .

هذا من الناحية الاقتصادية ؛ أما من ناحية الدين فقد ندد الشعراء بما حلّ  
 بالأمة الإسلامية من زندقة ومجون ، فهجوا تلك الحياة وصوروها في أساليب

مقدعة مخيفة ، حتى لقد فرغ أحدُهم حين سمع كافرًا يُشبهُ الكعبة بكومة الطعام ، والحجاج الذين يسعون إليها كالحمر الهائمة ، ولمّ لا يفزع الناس حين يَصوّرُ الأصمعيّ آلَ برمك بهذه الصورة وهم الأمراء الحكام فيقول :

إذا ذكرَ الشركُ في مجلس أضاءتُ وجوهُ بني برمك  
وإن تليتُ عندهُ آيةً أتوا بالأحاديث عن مزدك

فقد مدحهم من قبل ، فلما نكبوا ذكر الحال التي كانوا عليها ، وهجاهم مر الهجاء لحياتهم التي سلكوها ، وسلكتها معهم كثيرٌ من محبيهم والمنافقين حولهم ، وإذا كان الأمراء كذلك فالشعراء وصفوا الخلفاء بأبشع الوصف لحياتهم آنذاك قال بشار :

بني أميةَ هبوا طال نومكمُ إن الخليفة «يعقوبُ بنُ داود»  
ضاعت خلافتكم يا قوم فانتظروا خليفة الله بين الزق والعود

فهو يعيب على الخلفاء هُؤَهم ، وإضاعة الملك بين الزق والعود بينا الشعب يتضور جوعاً ويعيش حياة لا تشرف الحكام . وهجا دعبلُ الخزاعي المعتصمَ لتعصبه للأتراك وحمايته لهم ، فقال :

لقد ضاع أمرُ الناس حين يسوسهم «وصيف» «وأشناس» وقد عظم الخطبُ  
وإني لأرجو أن ترى من مغيبها مطالع شمس قد يغص بها الشربُ  
وهمك تركيُّ عليه مهانةٌ فأنتَ له أم وأنتَ له أبُ

وهذا دليل على تدمير الشعب من حال الحكم وتسلب الأتراك على الخلافة وتسييرهم على هَواهم ، حتى لقد قال شاعرهم :

خليفةٌ في قفصٍ بين «وصيف» «وبغا»  
يقولُ ما قالاً له كما يقولُ البيغا

وليس في الهجاء أبعد من هذا في تناول الخلفاء وتصوير شأنهم وهوانهم وقلة همّهم في ذلك العهد ، واضطراب الوضع . فقد كان الخليفة لا يملك أمراً من أمور الحكم ، وما من شيء في يديه ، وإليه تحمل الأموال ويمنع مما يجبي

إليه ، وظل الحال على ذلك حتى قال المتنبي :

ولإنما الناسُ بالملوك وما تفلحُ عربٌ ملوكها عجمُ

لأنه لا يرى عندهم أدباً ولا حسباً ولا عهداً ولا ذمّاً ، فكل أرض وطناً العربي أحسنّ بأنه غريب الوجه واليد واللسان ، بعد أن كان سيداً في كل مكان عزيزاً في كل أرض إسلامية . وليس هذا فحسب ، وإنما استولى على الحكم بعض النصارى فاستاء الشعب وتذمر ، حتى قال شاعرهم يهجو وزيراً مسيحياً بمصر :

تنصرُ فالتنصرُ دينُ حقٍّ عليه زَماننا هذا يدُلُّ  
وقُلُّ بثلاثة عزوا وجلوا وعطل ما سواهم فهو عطلُ  
فيعقوب الوزير أبٌ ، وهذا الـ عزيز ابنُ وروح القدس «فضل»

وذلك منتهى السخرية والزراية بالحكم المتقلب وبالحالة القلقة ، والانحطاط السائد ، وتبليبل الأمور ، وفوضى الأعمال ، والإنفاق الشديد بغير تعقل ، فقد سكن الأمراء والحلفاء والملوك قصوراً تحتل مساحات شاسعة من الأرض ، وليس للفقراء منزلٌ يأوون إليه ويسكنون عنده ، فقام ترفٌ لا حد له وفقرٌ لا حد له ، ونشأ من ذلك حسد وخبث ، وكذب وخديعة ، ولذا ثد بهيمية ضاعت معها الأعراض وفسدت الأخلاق ، وساعد عليها المتعاملون وأنصار الحكم المأجورون ممن يدعون زعامة الدين . وذلك لأن الحكام غرقوا في شهوات النفس والجسد ، وناموا عن شعبهم المسكين المريض الجائع الفقير ، فكفر الشعب بالمثل العليا . ووقعت الرعية في أنياب الإقطاع والظلم ، وكان للذئب مرتع في الغنم يسيم حيث يريد .

لذلك نهض الشعراء إلى هجاء الحياة الاجتماعية ووصفها بما آلت إليه من تدهور في الأخلاق عند الرجال والنساء ، وإسفاف في العلم وكفر في الدين ، فقال ابن لنكك البصري :

يا زماناً ألبسَ الأحـ رارَ ذلاً ومهانته

لستَ عندى بزَمانٍ إنما أنتَ زمانه<sup>(١)</sup>  
 كيفَ نرجو منكَ خيراً والعلا فيكَ مَهانتهُ  
 أجنونٌ ما نراه منكَ يبدو أمَ مجانتهُ

وقال كذلك :

نحن والله في زَمانٍ غشومٍ لو رأيناه في المنامِ فرعنا  
 يصبُحُ الناسُ فيه من سوءِ حالٍ حقٌ من مات منهمُ أن يهنا  
 وهكذا سُمَّ الشعبُ حاله وتمنى الموتَ ، لأن الأحرار في ذل ومهانة ،  
 والعلا أصبحت مَهانة ، والزمان غدا غشوماً ، كأن الناس في حلمٍ مفزعٍ يصبَحون  
 على حالٍ ويمسسون على أسوأ منه فضج الشعراء بهجاء الأيام والزمان والحياة ،  
 وبكوا الأخلاق الفاضلة ، وندبوا المثل التي كان يعيش لها العربي في سبيل المجد  
 والخلود . فقال المتنبي يهجو الزمان والدنيا :

لما الله ذى الدنيا مناخاً لراكبٍ فكل بعيدٍ لهم فيها معذب  
 وقال كذلك :

ودهرٌ ناسُهُ ناسٌ صغارٌ وإن كانت لهمُ جثٌ ضخامٌ  
 وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكن معدنُ الذهب الرغامُ  
 أرانبٌ غيرَ أنهمُ ملوكٌ مفتحةٌ عيونهمُ نيامٌ

فكل الذين يراهم الشاعر كانوا في نظره صغار القدر والههم ، وإن كانوا  
 غلاظ الأجسام ، وهو يقيم بينهم كما يقيم الذهب في التراب ، وأما ملوكهم  
 فهم الأرانب حقيقة ، ولكن عيونهم نيام وإن بدت مفتحة في غالب الأحيان .  
 وهو يرى فساد المجتمع بفساد ملوكه وحكامه :

ساداتُ كلِّ أناسٍ من نفوسهمُ وسادةُ المسلمين الأعبُدُ القزمُ  
 ولا تسل عما تناوله الشعراء من عادات الزمان وفساد الضمائر حين شكوا

قلة الوفاء والصدقة فأمعنوا وألحوا وظنوا أن الأخلاق الفاضلة قد ماتت بموت  
الأجداد ، فقال أبو فراس الحمداني :

بمن يثقُ الإنسان فيما ينوبه      ومن أين للحرّ الكريم صحابُ  
وقد صار هذا الناس إلا أقلهم      ذئاباً على أجسادهن ثيابُ

وأسرف في لوم الزمان وأهله فقال لأخ من إخوانه :

وأنت أخٌ تصنفو ونصنفو وإنما الـ      أقاربُ في هذا الزمان عقاربُ

فقد ماتت الثقة ، وأصبح الناس ذئاباً والأقارب عقارب ، لا يتقربون  
إلا للغنى الموسر ولا يسعون إلا حيث يجدون الحاجة فيقول الشاعر نفسه :

قومٌ إذا أيسرتُ كانوا إخوة      وإذا تربتُ تفرقوا وتجنبوا  
ويقول المتنبي في ذم هذا الزمان وهجائه :

إنالفسى زمنٌ تركُ القبيحُ به      من أكثر الناس إحسان وإجمالُ

وهكذا أدبر الزمان وانقلبت الأمور ، فأصبح الممسك عن قبيح الأفعال  
والمُتأخر عن مدموم السعى مشكوراً مذكوراً ذا فضل يؤثر وإحسان يشكر .  
ورأى الغزى أن الفضل قد انقضى فقال :

هبْ أن أهل الفضل عز وجودهم      أخلا بساطُ الأرض من إنسان

ولعل الشعراء في هذه الأزمان المذكورة نظروا إلى الدنيا فما وقعت عينهم  
على أحد يسمى إنساناً ، والذنب في ذلك كله ذنب الزمان فخصّوه بهجاء  
متتابع على العصور ، لأنهم رأوا أن الأيام لا ترفع إلا الفاسدين ولا تخفض  
إلا الكرام ، ويشسوا من صلاحه وتشاءموا من وجودهم فيه ، وجنوا للماضي  
لأنهم تصوره أحسن وأصلح ، والمعرى يجيبهم بهجاء بنى الإنسان قاطبة فيقول  
في آدم :

إذا ما ذكرنا آدمًا وفعاله      وتزويجه بنتيه لابنيه في الحنا

علمنا بأن الناس من نسل فاجر وأن جميع الخلق من عنصر الزنى  
ثم يقول فيه :

والناسُ قد فطروا مذكَ كانَ أوَّ لهمْ على الفساد فغنى قولنا فسدوا

لأنه هجا آدم والأوائل ، ولم يشفع لأحد عنده خير أو برّ ، ونظر إلى الدنيا  
بمنظار أسود فلم ير إلاّ الأخلاق الفاسدة ، والعقول الجاحدة ، والقلوب الكافرة ،  
فرماهم واحداً بعد الآخر ، وأصاب الحكام ورجال الدين والمرأة والرجل على  
السواء ، ووجد أن الزواج مضرّة وأن النسل مفسدة وأن الخير للإنسان أن  
يعقم . فقال في الحكام :

مل المقامُ فكمْ أعاشرُ أمةَ أمرتُ بغير صلاحها أمراؤها  
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعدوا مصالحتها وهم أجراؤها

ونظر إلى أصحاب الدين فكشف عن كثير من نواياهم وعمهم بنظرته  
فقال :

وقد فتشتُ عنْ أصحاب دينٍ لهمْ نسكٌ وليس لهمْ رياءُ  
فألقيتُ البهائمَ لا عقولُ تقيمُ لها الدليل ولا ضياءُ

فوجد في هؤلاء رياء في الدين وتظاهراً بالنسك ، فشبههم بالبهائم لا عقول  
لهم تقيم الدليل على تفقهم ولا ضياء ينير قلوبهم ، ثم رسم بعض الوعاظ  
لعصره يهجو :

يحرمُ فيكم الصُّبَاءُ صُبْحاً ويشربها على عمد مساء  
تحساها فمن مزجٍ وصرف يعمل كأنما وَرَدَ الحساء  
يقولُ لكمْ : غدوتُ بلا كساء وفي لذاتها رهنَ الكساء

ولعله أسرف في التشاؤم ، فلم يكن العصر يختلف عن غيره من العصور ،  
والناس هم الناس فيهم الصالح والطالح ، فخلط بينهم وحكم عليهم في قسوة  
فجعل رجال الدين يشربون في المساء ويرهنون في سبيل الخمر الكساء ، وهم

ما يزالون يعظون الناس بتحريم الحمرة والدعوة إلى النسك والزهد والصلاح ،  
وهم شرّ الناس يضربون أسوأ الأمثلة ، ويفعلون ما ينهون عنه ، كأنهم مشركون  
أو كفار يتظاهرون بالدين ، فإذا خلّوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن  
مستهزون . ورعى النساء بما رعى به الرجال فوصفَ عفتن على هجاء غريب :

ولسنّ بدّ أفعات يوم حرب      ولا في غارة متغشّيات  
وليس عكوفهن على المصلّى      أماناً من غوادر مجرمات  
ولا تحمدُ حسانك إن توافّت      بأيّد للسطور مقومات

ولعله يريد طبقة خاصة من النساء جاورته وعرفته ، وجاورها وسمع بها تسعى  
إلى الحلى تزين به فتنة وإغراء ، وتسعى إلى البعولة وغير البعولة . لذلك حرّم  
عليهن القراءة والكتابة وألزمهن قعود البيت . ورأى في خروجهن من الدار  
خطراً أشد الخطر . واكتفى بأن ذم كل البلاد وهجاها فلم ير الخير في قطر ،  
ولم يجد النعمى في بيت ، ولم يجد الإنسان في معاصر أو ماض فقال :

كل البلاد ذميمٌ لا مقام به      وإنّ حلتّ ديار الويل والرهـم  
إن الحجازَ عن الخيرات محتجز      وما تهامةٌ إلا معدنُ التهم  
والشامُ شؤمٌ وليس اليمنُ في يمن      ويثربُ الآن تُريب على الفهم

فليس في ديوان العرب أهجى للعرب من شاعر المعرّة ؛ جمع في دقّة  
قصيده بين هجاء الدّول العربية وذمها فاشتق من اسمها خسة ونقيصة ، فالحجاز  
محتجز عن الخيرات والشام شؤم واليمن بعيد عن اليمن ، فليس في الدنيا خير ،  
وليس في الحياة إلا التعب ، وهذا بعدّ في طلب المثالية وغلو في تنقص الناس ،  
لأنهم أبناء آدم وآدم من تراب ، وليس في التراب أحسن من هذه الطينة .  
ولسنا نفتش عن الفلسفة والدقّة والصحة في أقوال هؤلاء الشعراء ، وإنما  
نستعرض ألوان الهجاء للحياة الاجتماعية خلال العصور ، لتبين كيف كانت  
وكيف عالجها هؤلاء الأدباء ، ولنتنهي إلى أن بعضهم أقذع وأفحش وسبّ  
حتى بلغ الغاية في الهجاء والذروة في السباب ، وقد رأى الشاعر الخالديّ أن  
يصف قومه المعاصرين بأسلوبه فقال :



أرى ثياباً وفي أثنائها بقرٌ بلا قرُون وذأ عيبٌ على البقر

ففضل البقرَ على الناس . وقديماً وصم الجاهليون خصومهم فجعلوهم  
تيوساً وكلاباً وخنازير . فاستعملوا الحيوان في رسم صورة الإنسان المهجوت ،  
ثم شوهوا صورة الحيوان فاخترأوه بشعاً قبيح المنظر لينالوا من عدوهم إلى أبعد  
الحدود .

وقد كثرت شكاوى الشعراء من الناس وأخلاقهم وطبائعهم ، وفشا الدم  
من الزمان والأهل والأقارب والأصحاب . والبلد والقطر والإقليم فقالوا كثيراً مما  
لا يخصيه عدو ، حتى كان لهم باب في هجاء المدن والبلاد ، دخله شعراؤهم  
ليحطوا من قدر المكان وسكانه . فقال ابن عنين يهجو مدينة بخارى :

آليت لا آتي بخارى بعدها ولو أنها في الأرض دار خلود  
فلقد حلت بها حنيفاً مسلماً ورحلت عنها باعتقاد يهودى

وكذلك تسوء المدينة في عين ساكنها حتى ليتمنى أن يستبدل بدينه ديناً  
آخر بل إنه ليقول إن هذا البلد لتخرجه عن دينه لشدة ما يتحمل من أهلها  
في الغلاظة والإجحاف ونكران الحميل أو غير ذلك من أخلاق وطبائع ،  
ولقد هجا حلب الشهباء كذلك فقال فيها :

لا عادَ في حلبَ زمانٌ مر لي ما الصبح فيه من المساء بأمثل  
سيان في عرصاتها رآد الضحى عندى وديجور الظلام المسبل  
في معشر لعنوا « عتيقاً » لاسقوا<sup>(١)</sup> صوب الغمام ومعشر لعنوا « على »  
قوم عهود رجالم محلولة . أبداً وعهد - نسايم لم يحلل

فقد تساوى في نظره صباحُ المدينة ومساؤها ، والظلام والنور وخلط القوم  
فيها بين أبي بكر وعلى . فسبوا كلا منهما ولعنوه فلا مبدأ لهم ولا عهد لرجالم ،  
وهذا هجاء قوى مر يشين البلد وينال منه .

وفي العصر الحديث تناول الشعراء بلادهم بالالوم والهيجاء والعتاب ، كما

( ١ ) العتيق : أبو بكر الصديق ، بله

تناول القدماء . في رقة أسلوب وعبارة ، تشرب من العصر الذى عاشوا فيه ، فقال إسماعيل صبرى في مصر :

إننى أستغفرُ اللهَ لكمُ      آل مصر ليسَ فيكمُ منُ رجال  
فلَّ غرْبِي ما أرى منُ نومكمُ      ورضاكمُ بوجودِ الاحتلال<sup>(١)</sup>  
بحَّ صَوْتِي داعياً مستنهضاً      صارخاً حتَّى تولانى الكلال<sup>(٢)</sup>  
لم أجدُ فيكمُ فتى ذا همة      إن عدا الدهرُ عداً أو صالَ صال

ووصمَ المصرّيين أهلَه وقومه بالنوم والغفلة والرضى باحتلال الأجنبي فقد دعا واستنهض حتّى كلَّ لسانه وتعب بيانه فلم يجدَ ذا همة يجيب النداء ويعادو صائلا على الأعداء ، وهذه حرقة مخلص وصيحة محبّ يهيب بأمته أن تثور وأن تستفيق - ترجمها في ذمّ وهجاء أباحهما لنفسه حبّاً واندفاعاً في سبيل الخير لا الشرّ .

ومثله حافظ إبراهيم فقد تناول آدم وزوجاً ، وأرسل الحسرة والزفرة أسفاً لما وصلتْ إليه حالُ مصر فقال :

فما أنتِ يا مصرُ دار الأديبِ      ولا أنتِ بالبلد الطيب  
إلى أن يقول :

وكم ذا بمصر من المضحكات      كما قال فيها « أبو الطيب »  
أُمور تَمُرُّ وعيش يُمِرُّ      ونحنُ من اللهُو في ملعب  
وشعب يمر من الصالحات      فرار السليم من الأجرِب  
وصحفُ تطن طنينَ الذباب      وأخرى تشن على الأقرب  
وهذا يلوذُ بقصر الأمير      ويدعو إلى ظله الأرحب  
وهذا يلوذُ بقصر السفير      ويطنبُ في ورده الأعذب  
وهذا يصيح مع الصائحين      على غير قصد ولا مآرب

(١) فل السنّ : نلّمه وكسر حده ، الغرب : حد السيف ونحوه ، وهنا بمعنى ضعيف قوئ .

(٢) الكلال : التعب .

ولن تجد رساماً للحياة الاجتماعية أدق من هذا الشاعر حين رأى في بلده المضحكات من أمور عجيبة ، تجد الدنيا ويلهو الشعب ، فهو يفر من الصالحات ، وصحفه تطنّ طنين الذباب في مقالاتها السخيفة . وقد انقسم الناس فبعض " قد تمسك بالأمير ، وبعض قد لجأ إلى الأجنبي ، وبعض يصيح بغير قصد أو مأرب . وهذه علة من العلل في حياة الشرف منذ زمن قريب . هجاها الشاعر لعلّ قومه ينصرفون عن المحازى ويتعلقون بالعلا . ولعله لو عاش اليوم لانصرف إلى لون آخر من الشعر ، وقد أجاب المصريون نداء المجد وأصاخوا لصيحة الخلود .

هذا في مصر ، وأما في سورية فقد هجاها هاج فوصف حياتها خلال الانتداب فقال :

باع الأديب كتاب «الصرف» من طفر وعضه الظالمان البرد والسغب  
ولا ترى شارياً في السوق قاطبة إلا المآمير بالمال الذي نهبوا

أ ذلك أن العالم أفلس فباع كل شيء ، وغلبه البرد والجوع وأصبح الموظفون وحدهم ينعمون بالمال الذي نهبوا . ثم وصف الحكومة والبرلمان آنذاك فقال :

قالوا حكومتنا شورى فقلت لهم أنعم وأكرم فهذا القصد والأرب  
في البرلمان رجال ليس ينقصهم عن البهائم إلا السرج والذنب  
فللمساكين ما جادوا بخردة إلا وكانت من الشيء الذي نهبوا  
هل يقبل الشرع بالخرير تضحية يا ليت ما نهبوا منا ولا سلبوا

فهو يرى أعضاء البرلمان يسيئون في كل شيء ، وما لهم من فضل إلا الراتب الذي يقبضون ، فهم في تضحياتهم كالحنازير حين يهبون أقل الأشياء . ورسم التوظيف لذلك العهد فهجاه فقال :

بنت الحكومة هل إليك طريق  
أوليس مهرك يا فتاة ثلاثة :  
وكما علمت شمالي وتفضلي  
لا شك دون وصالك التمليق  
الكذب والتدليس والتلفيق  
خالي الوزير وعمي البطريق

فضيت لا ألوى على شىء سوى قبض المعاش وما أقول حقيقٌ

فرأى أن السبيل إلى الحكومة كذب وتدليس وتلفيق ، وقرب من الوزير ونسب إلى رجال الدين المتنفذين ، وهو إذا دخل الوظيفة دخلها لقبض المعاش لا يصنع خيراً ولا يجرى أمراً ، كأنه شبحٌ يؤجر وشخص يسخر . والهجاء فى لبنان للحياة الاجتماعية<sup>(١)</sup> كان شديداً تناول الولاة العثمانيين ، وحال البلاد والمجاعة ، والفرقة ، ولا سبيل إلى إيراده هنا لضيق المجال .

ولو أحصينا ما قيل فى هجاء الحياة الاجتماعية خلال العصور العربية لوقعنا على ديوان جامع واسع فى رسم هذه الحياة سخرية وهزواً وشكوى ، ليست من باب الوصف لأنه لا يصف المدينة والناس والألوان الزاهية والصور الحلوة والإعجاب الخالص والفننة والسحر ، كما رأينا فى الكتاب الذى خصصناه لهذا النوع ، ولكنه جعل ذلك للنقد والتعيير سعيًا وراء الإصلاح أو حباً بالتشنى والانتقام والضحك والعبث .

وهذا الذى رأينا من أبواب الهجاء قد يكون صدقاً أو كذباً — كما قلنا — ولكنه لن يكون عدة خالصة للمؤرخ العالم يتناولها كحقيقة خالصة أو مسألة علمية صرفة ، ما لم يعمل فيها معول النقد والتمحيص ، وينظر إليها من خلال الشاعر وعصره وظروفه ونفسيته وعقله ، مرضه أو صحته ، فقد يدفع إلى الهجاء أشياء كثيرة ، منها الفقر والحرمان ، أو مركبات النقص أو عواطف الاستعلاء أو الاحتقار والزراية ، أو الهزء والسخرية ، وربما دفع إليه استبطاء الوعد ، واستنجاز العهد ، أو العتب والتأنيب والذم والتعريض . بل ربما أوقدت ناره كراهية الناس جميعاً من تشاؤم ونظر أسود ، أو حمق أو طيش ، أو سفه وجنون ، فليس كل الذى يقال جديراً بالالتفات والاحترام .

ولم يتبسط هذا الكتاب فى الهجاء لطبقات الناس وميولهم والمهن والحرف

(١) انظر ما أورده الأستاذ عادل الفضبان فى كتابه عن « الشيخ نجيب الحداد » ص ٨  
هجو المتصرف آنذا .

والصناعات<sup>(١)</sup> . وتصويرها تصويراً مقذعاً . ذلك لأنه لم يهدف إلى استيعاب الألوان كلها ، وإنما إلى بسط ألوان من الهجاء الفنّي . ليرسم القدرة الشاعرية أو انحطاطها في باب الهجاء على اختلاف العصور العربية .

---

( ١ ) عندنا ديوان ضخم في هجاء المعلمين المعصور القديمة والحديثة ، ومن مقذع أقوالهم في المعلم :

معلم صبيحان يروح ويفتدى      على أنفه ألوان ريح فسانهم  
وقد أفسدوا منه الدماغ بفسوها      ورفعهم أصواتهم في هجائهم

ذلك في القديم ، وأما في الحديث فقصيدة الشاعر إبراهيم طوقان مشهورة في هجاء المهنة ، وهي في ديوانه فليرجع إليها من شاء التوسع .



## الفهرست

صفحة

٥	تمهيد
٧	مقدمة
٧	١ - الهجاء في الآداب العالمية
٩	٢ - الهجاء في الأدب العربي

### الفصل الأول - الهجاء الشخصي

٢٤ - ١٢	١ - الوقعة في الأعراض والأنساب :
	جرير - الفرزدق - بشار - أبو نواس - ابن الرومي -
	البحتري - المتنبي - المعري - ابن عنين .

### الفصل الثاني - الهجاء الشخصي

٤١ - ٢٥	٢ - عيوب الخلقة والسحنة :
	الفم - الأسنان - المنخران - العينان - الذقن
	الشعر - الشارب - العور - الصلعة - اللحية -
	القصر - الصوت المنكر - اللون الأسود - الأحذب .

٥٦ - ٤٢	الفصل الثالث - الهجاء الأخلاقي - المعايير والمثالب :
	الضعة والهوان - الغدر - ذل الجار - امتهان النساء
	بالحرقة - البخل والشح - الثقليل - الأحمق .

صفحة

الفصل الرابع - الهجاء السياسى : . . . . . ٥٧ - ٦٨

الوراثة فى الخلافة - حق آل البيت -  
تظلم الشيعة الشكوى من المستعمرين .

الفصل الخامس - الهجاء الدينى : . . . . . ٦٩ - ٧٦

الهجاء فى القرآن - حسان بن ثابت -  
تهكم الأنحطل - شك المعرى .

الفصل السادس - الهجاء الاجتماعى : . . . . . ٧٧ - ٩١

سوء الحالة الاقتصادية - قلة الدين -  
ضعف الخليفة هجاء الدهر - سقوط المرأة -  
ذم البلدان هجاء الممالك والحكومات .



رقم الإيداع	١٩٨٢/٣٧٧٣
الترقيم الدولي	٩٧٧-٠٢-٠١٣٣-٢
ISRN	

١/٨٢/١٥

طبع بمطابع دار المعارف ( ج . م . ع . )

*[Faint handwritten notes and bleed-through from the reverse side of the page.]*

*[Faint handwritten notes and bleed-through from the reverse side of the page.]*

## مجموعة فنون الأدب العربي

لقد قصد من هذه المجموعة أن تجلو للقارئ العربي ألواناً من الفنون الأدبية التي عالجها الأدب العربي في مختلف أقطاره وعصوره . فهي تقف أمام كل من أدبي فتعالجه في جزء أو أكثر من هذه السلسلة التي سيجتمع فيها محصول وافر من فون الأدب المختلفة التي تكون في مجموعها ذلك الهيكل الأدبي الضخم الذي شيدته العربية في تاريخها الطويل . .

وفضل هذه المجموعة أنها تعالج الأدب العربي لا على طريقة السنين ، ولا على طريقة التقسيم إلى عصور كما ألفنا في كتب التاريخ الأدبي . . . ولكنها تعالج الأدب العربي على مدى ما اتسع فيه من فنون ... فللمقامة موضوع ، وللقصة موضوع ، وللقزل موضوع ، وللوصف موضوع .. وهكذا ستكبر هذه المجموعة على قدر ما في الأدب العربي من فنون .

صدر منها :

- في الفن الغنائي : الغزل (جزءان) ، الرثاء ، الوصف ، المديح ، الفخر والحماسة ، الهجاء ، الموشحات والأزجال .
- في الفن القصصي : المقامة ، التراجم والسير ، الرحلات ، الترجمة الشخصية .
- في الفن التمثيلي : المسرح .
- في الفن التعليمي : البقد ، الخطب والمواعظ ، الحكم والأمثال .

تحت الطبع :

- في الفن الغنائي : الزهد والتصوف .
- في الفن القصصي : الملحمة ، القصة ، الحكاية والأقصوصة .
- في الفن التمثيلي : الفاجعة والمأساة ، الملهة .
- في الفن التعليمي : منظومات الشعر .